رواية

النقاب الأصفر

تأليف

﴿ ولكي كولنز ﴾

٦٠٧

كلمة للمعرب

الروايات مدارس اجتماعية اخلاقية يستفيد منها المرء فى ساعات
ما لا يستفيده بالمباشرة فى اعوام فنشرها واجب وقراءتها اوجب

حمدى

القسم الاول

(الفصل الاول)

لولا الرجاء وآمالي لما رغبت نفسي الحياة ولا باتت على ضرر
علالة النفس آمال تعاطلها حتى يجيء لها عزريل بالخبر

كان بمدينة بيسا قديمة العهد من نحو قرن مضى خائطة طليانية شهيرة اسمها دموازيل جريفوني اتخذت ذلك اللقب الفرنساوي لتظهر امام زبائنها مظهر الملم بما يختص بالباريسيات وزيهن . وكانت ضئيلة الجسم عابسة الوجه طلقة اللسان سريعة السير شديدة الاعتناء باشغالها وقد اشيع انها بلغت درجة عظيمة من الغنى ومما نسب اليها انها تقدم على اى عمل كان تري من ورائه بابا يوصل للنقود : وقد امتازت عن مناظراتها بثباتها الدائم فلم يعهد عنها انها سلمت مرة فى ذرة من حقوقها فى مواقف الخصام والمجادلة ولقد اتى عليها حين من الدهر كانت فيه مهددة بالسقوط الا انها حينئذ اكدت للملأ همتها وحكمة عقلها ظافرة منصورة ذلك انها لما بلغت نهاية الشهرة والنجاح فى عملها حسدتها المفصلة التي تدير حركة حانوتها وكانت في غاية من المهارة فتزوجت واتخذت لها مكانا خاصا اشتغلت فيه مناظرة لسيدتها

ولو ان هذه الضربة صادفت خائطة بسيطة غيرها لكانت القاضية على شهرتها ولاسقطتها فى مهاوى الانخذال ولكن جريفوني لم تعبأ بذلك واظهرت من الرزانة ما جعل القوم يعجبون بها واصبحت الرئيسة الفائقة في عملها

بلا مساعد ولا نصير وبرهنت وايما برهان انه لا يمكن سواها مهما سما نجم طالعها ان تضارعها في عملها او تزحزحها عن مرتبتها

وبينما الخائطات القاصرات يتنبأن ان ديموازيل جريفوني ستكف عن عملها وتقفل حانوتها اذا هي تراسل احد وكلائها في باريس ولم يعلم احد ما تضمنته رسائلها الا بعد مضي بضع اسابيع حيث نشرت بين سيدات بيسا اعلانات تنبىء ان أمهر مفصلة فرنساوية يمكن الحصول عليها باكبر أجر مالي ستحضر الى المدينة في يوم كذا وتتولى ادارة حركة اعمال جريفوني الشهيرة .. فاكد ذلك النبأ انتصار الدموازيل واوقف زبائنها معاملة اي محل آخر حتى تحضر المفصلة الجديدة وتعرض احدث الازياء التي احضرتها من عاصمة الخلاعة وام قري الملابس

حضرت المفصلة في الميعاد المحدد وكانت قصيرة الجسم باشة الوجه طلقة اللسان سريعة اللهجة لينة البدن اسمها المدموازيل فرجيني وفي حال حضورها دخلت الى حجرتها الخصوصية لاستلام أشغالها فوجدت بها من جميع أنواع الحلى والاقمشة ما يلزم الخائطات اذ كان تحت تصرفها كمية وافرة من القطيفة والحرير والاشرطة وغير ذلك، وقد أمرتها الدموازيل الا تقتصد شيئاً وان تخيط باسرع ما يمكنها احد واحسن الازياء الباريسية لتوضع في حجرة المعرض نموذجا للمتفرجات فاحضرت المدموازيل حقيبتها وأخرجت مثال كل جديد حسن واستعدت للعمل ولم يبق عليها الا وجود من يتكلم الفرنساوية ليترجم اوامرها للعاملات الطليانيات فسألت الرئيسة عن ذلك فقالت . لدينا طلبك متوفر الشروط وهي عاملة طليانية وغاية من النشاط تدعى هنا بريجيدا ذهبت الى فرنسا وأقامت

بها مدة فاحسنت تكلم الفرنساوية كأبنائها وسأرسلها اليك في الحال ولم تبق المدموازيل فرجيني وحيدة الا قليلا حتى ولجت الباب امرأة طويلة القامة ذات عينين ثابتتين تسير بقدم راسخ كانها الرجل وقد دخلت ماشية مشية الملكة الهائلة اذا خطت نحو عرشها فلم يكد يقع نظرها على المفصلة الفرنساوية حتى وقفت مكانها ورفعت يديها مندهشة وخرجت من بين شفتيها كلمة «فينيني» بلهجة التحير والانذهال فقابلت المفصلة دهشة صاحبتها بمثلها والقت بمقصها على الطاولة ومضت نحوها بضع خطوات وصاحت قائلة «تريزا» ثم اردف ذلك المنظر بان صاحت المرأتان في نفس واحد نخرج من فمهما هاتان الجملتان

صه ولتدعيني بريجيدا

صه ولتدعيني فرجيني

وبعدها أحدقت الواحدة منهما النظر باختها صامتة لا تنبس ببنت شفة واخذ لون الطليانية الاسمر بشيء من الصفرة القاتمة وارتجف صوت المفصلة قليلا حين عادت الى الكلام وقالت سائلة جارتها بالله عليك كيف وصلت الى هذه الدرجة المنحطة واصبحت في هذه الحال السيئة فلقد ظننتك في عيشة راضية حينما . . فقاطعتها بريجيدا قائلة كفي فانك تعلمين انني لم أكن في عيشة راضية فقد توالت على المصائب ولحقني سوء الحظ وانت آخر امرأة على قيد الحياة تعرف ذلك فاجابتها الاخرى بقولها ألا تعلمين انني أيضاً قد لحق بي سوء الحظ وداهمتني المصائب منذ افترقنا — وهنا أبرقت أسرة بريجيدا فرحاً فاستمرت فرجيني في حديثها فقالت بثبات ولقد جاء ذلك انتقاما لك . . قالت ذلك وعادت الى الطاولة فتناولت

مقصها و تبعتها صاحبتها وطوقت عنقها باحد ذراعيها بخشونة وقبلتها فى وجنتيها وقالت الا لنصطلح ثانيا فضحكت الفرنساوية واستطردت فى حديثها وقد احكمت أعناقها وقالت خبريني كيف كان ذلك انتقاما لي ؟ فاشارت لها المدموازيل ان تنحني ففعلت فاسرت فى أذنها بعض كلمات بسرعة فاصغت بكل التفات ناظرة الى الباب بعين غير مطمئنة ولما انتهى الهمس سحبت ذراعيها من حول رقبة جارتها وتنهدت تنهد الارتياح بسرور ورفعت شعرها الاسود الكثيف عن صدغيها وقالت نحن الآن صاحبتان . ثم جلست بكسل على كرسي موضوع بجانب الطاولة فكررت فرجيني كلمة «صاحبتين» ممزوجة بضحكة أخرى ثم أتمت حديثها وقد تناولت عدداً من الدبابيس ووضعتها بين أسنانها مستعدة للعمل وقالت : اما الآن من جهة العمل فاعتقد انني ماجئت هنا الا لاسقاط المفصلة السابقة التي قامت تناظر سيدتها وسيكون ذلك فعلا فلتنشري ايتها العزيزة الحرير الاصفر وتشبكي ذلك الارنيك في الطرف الذي بيدك حالما أشبك ما بيدي . . وما حيلك يا بريجيدا عانك لاتستطيعين ان تبقى طول حياتك فى هذا المكان على هذه الحال ولابد ان يكون لك تدابير وحيل فماهي ؟ لاتنسي ان فينيني قد ماتت وكونت من رمادها فرجيني .. حسن اتركي قيراطاً زائداً عن نهاية الارنيك من جميع الجهات . . نعم ما حيلك ؟

فوضعت بريجيدا نفسها وسط الحجرة بهيئة الاعجاب وقالت انظري الى قوامي

فلفظت المدموازيل من خلال اسنانها القابضة على الدبابيس وقالت اني لآسف ان اقول انه لم يكن كما كان من قبل وانك فى حاجة للطعام

والمشي ومنطقة فرنساوية

فأجابت الأخرى قائلة

اكانت الآلهة منيرفا تمشي وتلبس منطقة ؟ انى اظنها امتطت السحاب وعاشت فى زمن لم تعرف فيه ازياء الخصور؟

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ اعنى انى الآن اجتهد واسعى في تشييد صروح مستقبلى بجلوسى بدار اعظم نقاش في بيساكنموذج ينقل عنى تمثال الآلهة منيرفا

ـ ومن هو هذا النقاش؟.. فكي باردة واثنين من ذلك الحرير الاسود

ـ هو المعلم النقاش (لوكالومى) من نسل عائلة قديمة شريفة اخنى عليه الدهر فأسقطه من درجته فاشتغل بصناعة تماثيل يتعاون بثمنها على ضروريات معيشته وابنته

ـ فكي باردة أخرى من القماش واطبقيه على الرداء ـ . نعم . وكيف بجلوسك في دار هذا النقاش الفقير تبنين صروح مستقبلك ؟

ـ اعلمى ان فى المكان نقاشين غيره منهم اخوه الاب روكو فهو يقضى جميع اوقات فراغه مع اخيه وقد صنع جملة تماثيل للكنيسة وهو رجل تقي يقف مايحصل عليه من صناعته على أعمال الخير

ـ ان كان هذا الرجل بفرانسا لعددناه راهبا مضحكا واظنك لاتنتظرين منه أن يضع يوما مافي جيبك شيئا من النقود .. اعطنى قليلا من الدبابيس

ـ انتظرى فى المكان نقاش ثالث وهو شاب غنى شريف اسمه (فابيودى اسكولى) جميل الطلعة ضعيف العقل ومما يثبت ذلك انكبابه

على الاشتغال بالنقش وظنه أنه أجمل تسلية له حتى انه يتناول طعامه هناك . . شاب من ابناء اشرف عائلات بيسا يجد لذته فى الاشتغال بالنقش ! ! مهلا . مهلا . واسمعى فايأتى فلقد مات ابواه وليس له في الدنيا اقرباء يراعونه وهو لم يتزوج بعد ويمكن لامرأة ماهرة ان تجذبه اليها وتبنى له مستقبلا حسنا .

ـ كفى كفى فقد فهمت ان الآلهة منيرفا هى تلك المرأة الماهرة التي تمد اليه يديها وترجعها بمستقبل زاهر .

ـ اسمعي كيف يتأتي ذلك . . انى لااجلس للشاب انما اجلس للمعلم لوكالومي فهو الذى ينقش تمثال الآلهة منيرفا ولقد نقل رأسها ووجهها عن ابنته ويريد شخصا آخر ينقل عنه الصدر والذراعين وانا ومدالينالومي نقرب من بعضنا فى الطول الا انى اعدل منها قواما ولقد ارسلت مع صاحبة لى مشتغلة فى المكان اعرض نفسى فان قبل المعلم ذلك فسيكون جلوسي بالقرب من الفتي وعندها اترك بقية العمل لنظراتى الفاتنة ورشاقتي ولسانى الخادع . .

ـ اصبرى لاتطبقى الحرير فانى ازيده مفرودا . ومن هي صاحبتك التي وكلت اليها امرك ؟

في هذه البرهة سمعتا على الباب دقا خفيفا فاشارت بريجيدا لصاحبتها بالسكوت ثم اذنت للطارق فدخل

فتح الباب بلطف وولجت فتاة صغيرة السن نحيلة الجسم معتدلة القوام بهية حسناء شعرها ذهبي جميل وعيناها زرقاوان بلغتا من الحسن منتهاه وقد اقر الايطاليون وغيرهم ان مثل هاتين العينين هو اشد العيون تاثيرا

في القلوب وبالجملة كانت الفتاة في منتهى الرشاقة واللطف غير انها باهتة اللون تظهر عليها علامات المرض اما لباسها فبسيط يدل على فقرها وغاية القول ان وجهها جمع كل مايسمى جمالا ولم ينقصه غير الدم الذي عليه مدار البهاء . دخلت الفتاة بحال انكسار وخضوع وقد ظهرت عليها ملامح الحزن والكآبة ولم تكد تظهر امام المفصلة حتى نظرت اليها نظرة الاندهاش والشفقة الا ان الفتاة لم تطل البقاء في حضرة المرأتين بل عادت الى الباب بلطف قاصدة الخروج فعاجلتها بريجيدا قائلة بالطليانية — قفي يا (نانينا) ولا تجزعي من هذه السيدة فهي مفصلتنا الجديدة وانها شفيقة تعمل كل ما فيه صالحك . قفي ولا تكوني كالاطفال فقد بلغت السادسة عشرة في السنة الماضية والآن ارى اخلاقك كاخلاق ابنة السنتين . فقالت الفتاة بصوت رخيم وقد تلعثمت عند محاولتها النظر الى المرأة الفرنساوية — انني انما جئت لارى ان كان لى عندكم اليوم من عمل ؟ فقالت بريجيدا — ليس لدينا اليوم يابنية عمل يسهل عليك القيام به فهل انت ذاهبة الى دار الصناعة؟ فاجابت الفتاة قائلة نعم وقد علا وجنتيها شيء من الاحمرار الذي هي في اشد الحاجة اليه فقالت بريجيدا : اذاً لاتنسى ياعزيزتى رسالتي وان سألك المعلم لوكا عن مكان اقامتى فقولى انك مستعدة لحمل خطابه الى ولا تخبريه في هذه المرة عمن انا ولا اين اعيش فقالت الفتاة ببراءة وبساطة

ولم لااخبره بذلك ؟

— لا تسألى شيئا ايتها الطفلة وافعلى كما تؤمرين ولتعودى الى غدا من دار الصناعة بمذكرة لطيفة او رسالة رقيقة وسأتوسط لك عند هذه السيدة لتوجد لك عملا وانى اراك طفلة حمقاء اذ تطلبين الرزق من

الاشتغال في حال انك قادرة ان تحصلي على ايراد اكثر بجلوسك نموذجا للنقاشين والمصورين هنا وفي فلورنسا وان كنت لا ادري ماذا عنك يقولون في صورهم وتماثيلهم

فأجابت ناظرة بخجل وحياء

ـ اني افضل الاشتغال في داري عن الذهاب والجلوس للمصورين

ثم تركت الحجرة مذعورة بعد ان حيت المرأتين منحنية فقالت المدموازيل فرجيني وهي تقطع القماش . من هذه الفتاة؟ . ان شكلها قابل للتحسن ان هي عرفت كيف تصل الى ذلك وارتدت ملابس جميلة . فاجابت بريجيدا انها الرسول الذي يوصلني الى دار صناعة المعلم لوكالومي اليس بغريب ان تكون هذه حليفتي ؟

ـ اين تعارفت بها ؟

ـ عرفتها هنا فهي دائما تأتي لتبحث عن شغل بسيط تأخذه فتشتغله في دارها وتعيش من اجره ولقد تبعتها مرة بعد خروجها حتي وصلت الى دار حقيرة فامهلتها حتي ولجت وصعدت فطرقت الباب كزائرة فاسرعت للقائي وقد اندهشت عند رؤيتي ثم دخلت واياها الى حجرة حقيرة حجز جانب منها بستار ليكون خاصا بالنوم وكان بالمكان مقعدان وموقد عليه اناء فيه طعام جلست امامه فتاة بهية الطلعة وضاحة الجبين وربض بالقرب منها كلب فظيع الشكل لم ار في حياتي ابشع منه شعره غزير كثيف فسالت الفتاة قائلة اين ابوك ؟ قالت ذهب وتركنا من زمن بعيد ولا ندري له مكاناً . قلت واين امك ؟ قالت ماتت . قلت اظن هذه اختك فما اسمها ؟ فاجابت الفتاة الصغيرة بقولها انهم ياسيدتي يدعونني

لا بيوندلا . فقلت ولم تصحبان هذا الكلب الفظيع معكما ؟ قالت انه يا سيدتي يحرس البيت اثناء غياب ذا نينا عنه وهو انيس امين ولكنه يخرج كل صباح ويعود يحرك فاه واخشى ان يكون لصا غير اني اعلم انه لا يتمكن احد من ضرره فهو ماهر جدا وسبب وجوده عندنا انه تبعنا مرة من مدة مديدة ولم يفارقنا بعد وهو طالما يسليني برقصه والعابه المضحكه فقد يقف على ساقيه الخلفيين ويلعب جملة العاب مسلية ومتى قلت له مت فانه يرقد جامدا لا حراك به . . . وهكذا اندفعت الفتاة في تيار حديثها عن الكلب بهذه العبارات حتى اوقفتها وكانت اختها تشجعها وتضحك وبعدها سالتهما جملة اسئلة اجابتاني عنها باجوبة محزنة تنبئ عن عيشهم المروحياتهم المؤلمة وقد قالتا انه بعد موت امهما اعتنى بهما الجيران حتى شبا وامكنهما ان يعتنيا بنفسيهما واخيرا فارقتهما وقد سمعت الفتاة الصغيرة تصيح بالكلب (مت) فالقى نفسه على الارض وصاح صياحا مزعجا ولولا وجود ذلك الوحش المخيف بدارهما لترددت عليهما كثيرا الا انه كلما اقتربت منه يكشر عن انيابه ولذلك ترينى كرهت زيارتهما . .

فقالت فرجينى

ـ تلوح على الفتاة علامات المرض فهل كانت كذلك من قبل ؟

ـ كلا ان ذلك لم يظهر عليها الا منذ شهر فقط واظن ان الفتى الشريف قد أثر عليها لانه كلما ازداد تردده عليه والجلوس امامه كلما ازداد لونها اصفرارا وبدت عليها علامات المرض

ـ ماذا تقولين ؟ اتجلس هذه الفتاة للشاب الشريف ؟

ـ نعم انها تجلس له لانه ينقل عنها صورة لا ادري ماهي ولما طلب اليها الجلوس

ابتدى في اول الامر وحملته من المتاعب شيئا كثيرا لانها كانت مرتاعة خائفة

ـ واذاً قد انتهى الامر ووافقته فهلا تخشين ان تصير يوما ما مناظرة لك خطرة عليك ؟ الا تعلمين ان الرجال جهال تؤثر عليهم تلك البساطة التي تحتقرينها ؟

هذا امر بعيد فهل تظنين ان فتاة كهذه تحيلة ضعيفة لا خلق لها ولا تعرف كيف تتكلم ولا شيء فيها غير حسن بسيط تقف في طريق وتحول بيني وبين مطالبي ؟ ان كان هناك حقيقة مناظرة أخشاها فهي من مداليننا ابنة المعلم لوكا فانى لا اودان اراها في طريقي اما ثانينا فلا استغنى عنها فهي السلم الذي يوصلني الى اغراضي فمنها اعرف خفايا دار الصناعة وهي التي ستحمل رسائلي وتاتيني بردها ومتى وصلت الى مرادي اكافئها على عملها برداء قديم واصافحها يدا بيد والقي عليها تحية الوداع

ـ اتمنى ان تكوني الفائزة ولعلك اكثر مني خبرة في هذا الموضوع اما انا فلا اثق بالبراءة ابدا ... انتظري برهة فسأتمم اكمام هذا الرداء ولا يبقى عليه سوى الخياطة ولتدقي الجرس وتدعي العاملات فلدي تنبيهات اريد القاءها عليهن ولتكوني واسطة الحديث بيننا

بينما بريجيدا تدق الجرس اخذت الفرنساوية الماهرة ترتب اجزاء الرداء وهي تضحك عند قياسها الحرير فقالت بريجيدا وقد فتحت الباب ودقت جرسا صغيرا ـ علام تضحكين ؟ قالت

ـ انني ايتها العزيزة رغما عن حديث الفتاة البسيط وظهور البراءة والطيارة على محياها فانه لا يمكنني ان اسلم بعدم ريائها ونفاقها

فقالت بريجيدا

وأنا على يقين ايتها العزيزة انها ليست الا غبية بلهاء

الفصل الثاني

كل يشيد للعلا آماله وارى الزمان يهدم الاملا

هذا يكيدلذا وهذاغافل والكل عن كيد الردى غفلا

بينما الخائطات فى دار جريفوني يشتغلن باعمالهن اذ التلامذة بدار صناعة المعلم لوكا لومي منهمكون كذلك في اشغالهم وكان المكان فسيحا ينقسم الى قسمين غير متساويين جلس فى اصغرهما الفتى الغنى واسمه (فابيو) وجلست امامه الفتاة ثانينا .. اما الفتى فتظهر عليه علامات الذكاء والنشاط غير انه فى حاجة للعزم والثبات فقد ظهرت عليه البساطة اوضح ظهور

وكان المعلم لوكا واقفا على باب القسم الاكبر يعطى اوامر مختلفة لعماله المشتغلين بنحت الاحجار وتسويتها وكان قد انتهى من حفر وجه تمثال الآلهة منيرفا ـ وبالقرب منه وقف اخوه الاب روكو يتامل فى تمثال ينحته وقد انتهت الفتاة مدالينا لومي من الجلوس امام ابيها وقامت تتمشي وسط العمال وتلاحظ اعمالهم . وكنت ترى هناك مناسبة بين الاب والاخ والبنت فى الطول وسواد الشعر والعيون وكان خلق المعلم لوكا شرسا فقد ظهرت على محياه امارات الغضب وكتب على وجهه باوضح عبارة: اغضبني وهيهات ان تنال عفوى .. اما الفتاة فكانت علامات الحمق بادية على محياها الان الناظر اليها يرى لاول وهلة انها تغضب لاقل شيء ولا تلبث ان ينصرف غضبها وتعود الى الهدو والسرور واما الاب روكو فقد دل منظره

على أنه يتمدد من الغضب بقدر امكانه لانه لا يسأل العفو ولا يمنحه

انهى المعلم لوكا من حفر وجه منيرفا فقال يخاطب اخاه ويشير الى التمثال . سيحدث هذا التمثال ياروكو تأثيرا عظيما بين النقاشين . فاجابه الراهب بغير اهتمام يسرني ان اسمع ذلك . فقال الآخر بنشاط وافتخار ان طريقتي هذه في النقش من مخترعاتي لان جميع النقاشين المشهورين امثالي يقيدون انفسهم بالتصوير التخيلي المحض اما انا فقد خالفت خطتهم على خط مستقيم ونقلت في تمثالي هذا وجهه عن ابنتي وجعلته وجها لمنيرفا وبذلك فقدت الجمال الخيالي ولكنني اكتسبت الجمال والتقاطيع الشخصية الحقيقية وسيتهمني الناس باهمال الطرق المتبعة وسيكون جوابي لهم انني أخط لنفسي الطرق التي أتبعها وابنتي تشبه منيرفا وهـا نقلت صورتها بدقة واعتناء بحيث لا تختلف عنها ذرة . فقصد الراهب التمثال وقال ـ حقا ان الشبه مطابق للحقيقة مطابقة غريبة . فقال أخوه . انها الفتاة نفسها بتقاطيعها وتركيبها فالتقس رأس مدالينا ورأس منيرفا ووجههما من الجبهة الى الذقن فانك لا تجدهما يفرقان سمك شعرة واحدة . فعاد روكو الى عمله وقال اثناء عودته ـ ولكن ماذا تفعل في صدر التمثال وذراعيه وقد انتهى الرأس ؟

ـ سأحصل على نموذجهما غدا فقد جاءتني الفتاة نانينا برسالة غريبة في ذلك الموضوع فما قولك في سيدة غريبة تقدم نفسها للجلوس كي انقل عنها صدر وذراعي منيرفا

ـ وهل عزمت على قبول طلبها ؟

ـ انني وعدت بانتظارها غدا ومتى جاءت ووجدتها في طول مدالينا

وصدرها وسواعدها تستحق أن تكون نموذجا فانى بلاشك أقبلها وتكون هى ضالتي التي انشدها ولى اسبوعان ابحث عنها غير انى اود ان اعرف من هي فهذا هو السر الذى شغلنى فما رأيك فيها اتظنها غاوية ام محتالة ؟

ـ هذا أمر لا يمكننى ان ابدى فيه رأيا لعدم المامي بالمعلومات التي ابنى عليها حكمى .

ـ هاأنت عدت الى كتمانك فانى اؤكد انها لابد أن تكون احدى المرأتين لانها ان لم تكن كذلك ماامرت ثانينا بعدم الاباحة لى بشىء عنها فى أول محادثة تدور بشأنها . . . اين مدالينا فانى اذكر اني رأيتها هنا من برهة ؟

ـ انها بحجرة فابيو فهل تريد أن أدعوها ؟

ـ لا . لا .

قال لوكا ذلك ثم وجه نظره برهة الى العمال المنهمكين في صناعتهم وعاد ثانيا فنظر الى اخيه مبتسما ابتسام الخداع واتم حديثه هامسا فقال ـ ما أجمل ان يساعد الحظ وتخرج مدالينا من هذه الحجرة الحقيرة الى سراى فابيو . . مابالك تهز رأسك يا أخي انى واثق اني لو جئت بها يوما الى كنيستك بصفتها خطيبة فابيو دى اسكولى لامتلأ قلبك سرورا وتوليت عنى بقية العمل بانشراح فتجعلها زوجة ـ نعم أنك رجل دينى ولكنك تعرف الفرق بين الفقر والغنى وتميز بين المر والحلو فهذه أحوال لاتخفى عليك

ـ انى ليحزننى ان تتكلم في موضوع من ارق الموضوعات بعبارة خشنة مؤلمة وهذه احدى الهفوات التي اخذت تنمو عندك فلتصبر حتى نخلو

بالمكان وعندها أحداثك فى هذا الموضوع اما الآن فدعنى اشتغل بعملى

فهز لوكا كتفيه وتركه وذهب الى تمثاله اما هو فكان مشتغلا من نحو عشرة دقائق بتحليل شيء من الجير لدهان رأس تمثاله فلما حول اخوه وجهه عنه اسرع الى احد اركان الحجرة وحمل مرآة كانت موضوعة به فوضعها بجانب الطاولة التي كان يشتغل عليها ثم بدأ الدهان بدقة ومهارة تدلان على كثرة ممارسته وبعد ان دهن نصف القدر المعين عاد اليه اخوه وقال كيف انت والمحلول الا تحتاج لمساعدة ؟ فأجاب

اشكرك ايها الاخ واود الا تتعب نفسك او احد عمالك من اجلى فانى قائم بعملى على مايرام

فعاد لوكا الى تمثاله مرة اخرى وبمجرد ذهابه اسرع الاب روكو فحمل المرآة ووضعها امام طريق الباب الموصل الى الحجرة الصغيرة لتعكس له صورة من بها وكانت تلك أول مرة استعملها فيها لاكتشافات سرية وبعدها عاد يشتغل بالدهان وهو ينظر الى المرآة من برهة الى أخرى فيرى مايحدث بالحجرة الثانية كان من فيها مصورا امامه فى صورة متحركة فرأي مدالينا واقفة وراء الفتى الشريف تنظر اليه وهو يشتغل بعمل صدر تمثاله ثم تناولت منه آلة العمل فجأة واخذت تريه بعض هفوات كانت تمر عليه عرفتها لكثرة تعودها على النظر الى اعمال ابيها وملاحظتها بعين حريصة وكانت من برهة الى أخرى تميل عليه وتجتهد فى وضع يدها على كتفه بلطف او ارسال شعرها الكثيف حتى يلمس شعره ويتماوجان ـ وبعد أن شاهد الراهب ذلك المنظر حرك المرآة من مكانها ليتمكن من رؤية ناينا فلم يكد ينظر اليها حتى رأى على وجهها آثار الغيرة فكانت كلما تبصر

مداليا تعامل الفتى تلك المعاملة بلا تكلف يصفر وجهها ويضطرب بها مجلسها فتمسك بالشريط الذي يربطها الى الكرسي وتضغط عليه باصابعها بتأثير عصبي فقال الرجل في نفسه

ـ انها لفيورة وهذا ماحسبته من أسابيع مضت

فكر في ذلك ثم وجه التفاته الى محلوله بضع دقائق عاد بعدها الى النظر في المرآة فشاهد حادثاً فجائياً غير حال جماعته فلقد رأى مداليا أخذت آلة النقش وجعلت تصلح شعر التمثال فنظر اليها فابيو بالتفات بضع لحظات وبعدها وجه التفاته الى نانينا فنظرت اليه نظرة العتاب والاسف فقابلها بنظرة هدأت روعها وجلبت على قلبها شيئاً من السرور فتبسمت وهنا نظرت اليها مداليا فجأة فما كادت ترى تبسمها حتى تبست نظرها لترى لمن وجه التبسم فرأته موجها الى الفتى فالقت عليها نظرة الاحتقار والقت بالة الرسم من يدها ونظرت الى الفتى بغضب وغيظ شديدين ـ وكان قد عاد الى انهماكه في عمله ـ وقالت

ـ أرجوك ياحضرة السنيور متى أردت ان تحتقر درجتك ومقامك انْ تنهى الى ذلك حتي يتسنى لى ان اترك الحجرة.

وما جاءت على آخر عبارتها حتي تركت المكان مسرعة وكان عمها منكبا على عمله فسمعها تقول هامسة أثناء مرورها به لو كان لى نفوذ عند أبى ما جعلت هذه الفتاة الحقيرة الوقحة تدخل الدار ثانياً.

فقال فى نفسه ، كلتاهما غيور حسود فلا بد من تدارك الامر قبل ان تسوء العاقبة

ثم نظر فى المرآة ثانيا فرأى فابيو قد أشار الى نانينا لتدنو منه

فتركت مكانها ومشت حتى منتصف الطريق بينهما ووقفت فخطى نحوها وأخذ بيدها ثم همس فى أذنها بخفة ولطف وقبل ان يترك يدها لمس وجنتها بشفتيه ثم ناولها برقعها الابيض الحقير الذى تستر به وجهها في الطريق فارتعدت وسحبت البرقع على محياها وعندها خرج فابيو الى الحجرة الكبيرة ووجه حديثه الى الراهب حيث قال

ـ اخشي ان اكون اليوم اكسل او ابطأ منى فى كل يوم فانى لم اتمكن من نقش الصدر كما احب لذلك فضضت جلسة اليوم وسمحت لنانينا باجازة نصف يوم . . فى تلك اللحظة كانت مدالينا واقفة تخاطب أباها فلما سمعت صوت الفتي قطعت حديثها ونظرت الى نانينا ثانيا نظرة الازدراء والحقد ثم تركت الحجرة فدعا ابوها فابيو اليه وكانت نانينا واقفة ترتعد امام الباب فانتهزت فرصة اشتغال الجميع عنها وارادت ترك المكان بدون ان يلاحظها احد ولكنها لم تكد تسرع خطاها وتمر بالراهب حتي دعاها اليه قائلا بحال هدو وسكون

ـ أأنت ذاهبة يابنية الى الدار ؟

ـ فخفق قلبها ولم تستطع المجاوبة بلفظ بل هزت رأسها اشارة الايجاب فوضع فى يدها بضع قطع من الفضة وقال

خذى هذه لاختك وخبريها ان لدى زبائن لشراء حصرها التي تصنعها وسأمر عليكما الليلة اثناء مروري على الفقراء وآخذ ما جهزت من الحصر فلا لزوم لارسالها قبل حضوري واني اتوسم فيك ايتها الفتاة الطهارة والطيبة وقد عهدتك كذلك منذ عرفتك وسوف لا تحتاجين الى صاحب مرشد غيري ما دمت حياً .

قال ذلك فاغرورقت عينا الفتاة بالدموع واحكمت البرقع عما كان وحاولت شكره فلم تستطع فهز رأسه بشفقة ولطف ووضع يده بخفة على رأسها برهة انصرف بعدها الى تمثاله وسارت هي في طريقها فلما مرت على لوكا قال

ـ لا تنسى رسالتي للسيدة فها انا في انتظارها غداه وبعد خروجها عاد فابيو الى الراهب وكان لا يزال مشتغلا بعمله فلما رآه قابله بقوله

ـ اتهشم اذ تسير غدا في عملك كما تحب واؤكد لك انك لا تشكو بعد الآن من نموذجك . فصاح الفتى بحدة

ـ اشكو من نموذجي . لم ؟ ان رأسها اجمل رأس رأيته في حياتي ولو انني كنت امهر مني الآن عشرين مرة ليئست من ايفاء الصورة حقها بجعلها موافقة للحقيقة

قال ذلك ودخل الى الحجرة الصغيرة لينظر الى تمثاله فوقف امامه قليلا يتأمل فيه ثم قصد الخروج ثانيا وكان بينه وبين الباب ثلاثة كراسي فلمس الاثنين الاولين بظهره اثناء مروره بلا قصد ومر على الثالث بدون ان يلمسه ولكنه ما وصل عتبة الباب حتى وقف كأن طرأ عليه فكر فجأئي ثم عاد ولمس الكرسي الثالث ولما خرج صادف الراهب ناظراً اليه باندهاش ظاهر وقال ضاحكا متهكما ـ من ذا الذي كان يظن يا سنيور فابيو انك متفائل تعتقد في الاوهام ؟

فاجاب الفتى وقد احمر وجهه وضحك متصنعا ـ كانت مربيتي تتفاءل كثيراً فأكسبتني بعض طباع رديئة لم اتخلص منها للآن

وبعد ان اتم كلامه هز رأسه وخرج مسرعا فقال الراهب يخاطب

نفسه بهدو «متفائل» ثم ضحك وتردد قليلا واخيراً تصعد النافذة ونظر الى الشارع وكان هناك طريقان احدهما الى الشمال وهو الموصل الى سراى فابيو والثاني الى اليمين ويوصل الى الكامبوسانتو بقرب مسكن تانينا ووافق نظره من النافذة وقت دخول الفتى فى الطريق الايمن .. وبعد مضي نصف ساعة انصرف العمال لتناول الطعام وخلا المكان للراهب واخيه فقال ـ لنعد الآن الى حديثنا الماضى

فقال لوكا بخمول

ـ ليس لدى ما اقوله فى هذا الموضوع غير الذى اخبرتك به

ـ اذا فلتوجه التفاتك الى ما اقول .. انى اعترضت على خشونة حديثك عن تلميذنا الصغير وابنتك وما زلت اعترض بشدة على تلميحك الى ان رغبتى فى زواجهما (بفرض انهما يميلان الى بعضهما ميلا شديدا) ناشئة عن باعث الطمع

ـ انك تحاول يا روكو ان تخدعنى ولكننى لا اخدع فانى اعرف الباعث الذى رغبنى في زواجهما وذلك ان ماله سيصير ملكهما وزيج كلنا التمتع به وحقيقة هذه العبارة خشنة منشأها الطمع ولكنها الحقيقة وهذا هو السبب الذى من اجله ارغب في زواجهما وانت كذلك ترجو ان يتم هذا القران فان لم يكن الدافع لك على تلك الرغبة هو نفس الدافع لى فما هو اذاً ؟

ـ ماذا استفيد من الاقارب الاغنياء وما هو مقدار الانسان بالمال وما هو مقدار المال نفسه وما فائدته لانسان يتبع دعوتى ويسير على خطاي ؟

ـ المال شيء ضروري لكل انسان

اهو كذلك ؟ ارأيتني مرة اهتم به ؟ اعطني من المال ما استعين به على شراء قوتي اليومي وأدفع اجر سكني وثمن ردائي الحقير فاني لا احتاج منه لغير هذا وما انفقه على الفقراء فهل رأيتني مرة طامعا في المال؟ السمت اشتغل معك في هذا المكان حباً فيك وفي الصناعة ولم احدد معك اجرا معينا على عملي ؟ اسألتك مرة مالا اكثر من يضع قطع من الفضة اصرفها على فقرائي ؟.. المال ضروري لرجل يدعي غدا الى رومه ويرسل بعد نصف ساعة في ارسالية ربما جاب فيها طرفي الارض وعلى العموم لشخص يكون مستعدا لتلبية في اي لحظة يطلب فيها ولكن ما فائدة المال لرجل لا امرأة له ولا ولد ولا حظ في غير دائرة الكنيسة المقدسة ؟ انتظر يا أخي هذا التراب والحصى المنثور حول تمثالك. اعلم انك لو نقلته وفرشت الارض مكانه ذهبا لما كان امام عيني الا نثارا كما هو الآن

ـ حقا يا روكو هذه عواطف شريفة ولكني لا اكاد اصدق ما اسمع لانه ان كان كما تقول انك لا تهتم بالمال فلم أرى منك سروراً وانشراحاً لزواج مدالينا من فابيو ؟ ألم يخطبها قبل اناس افقر منه ومع ذلك لم تهتم بقبول او رفض اي خطبة منها ؟

ـ لقد اسررت لك السبب منذ شهرين عند اول دخول فابيو هذه الدار.

ـ ان اسرارك كان مبهما اذ ذاك فهل لك ان توضحه الآن؟

ـ نعم يمكنني ان اوضح لك السبب فلتعلم اولا ان ليس لي قصد في الفتى نفسه فهو ربما ان يكون به شيء من السيئات الا أنني لم اكتشف له بعد خطأ يذكر.

ـ انك انما تمدحه بطريق باردة غير مألوفة .

ـ كان يمكنني ان اتكلم عنه بعبارات مناسبة تماما فيها روح الاحساس ان لم يكن هو المثل لفساد هائل وغلطة فظيعة لا تغتفر وانني كلما افكر فيه افكر في ضرر عظيم يجدده وجوده وان كان كلامي عنه ببرود ليس الا لهذا السبب .

فحول لوكا نظره عن اخيه بسرعة وجعل يخبط الحجارة المنثورة حوله وقال

ـ اذكر الآن ما رمي اليه تلميحك واعرف ما تقصد

ـ اذن فانت تعلم انه كما ورث هذا الشاب جزءا من ثروته عدلا حلالا فقد ورث جزءا آخر حراما جمعه اسلافه من تخريب الكنيسة وسرقتها ؟

ـ ليس هو الملوم على ذلك بل الملوم اجداده .

ـ ما دام حق الكنيسة المنتهب لا يرد اليها فانني لا الوم سواه

ـ وكيف علمت ان حقها انتهب ؟

ـ لقد فحصت اوراق حروب ايطاليا الداخلية بدقة واعتناء لم يقم بهما رجل قبلي فعلمت وتحققت ان اجداد فابيو دي اسكولي قد نهبوا من الكنيسة ايام ضعفها متاعا ادعوه لانفسهم واعرف جملة اراض نهبت في تلك الايام المشؤمة اما بطريق الارهاب والوهم او بطريق الغش والتزوير الذي لا يلاحظه القانون ـ ولذا فانا اعد ذلك المال منتهبا وقول انه يجب رده الى الكنيسة التي انتهب منها وسوف يرد

ـ وماذا كان جواب فابيو لك عن ذلك ؟

ـ انى لم افاتحه بعد فى هذا الموضوع

ـ ولم لم تفعل ؟

ـ لانه لا نفوذ لى عليه ولا جراءة تحول لي ذلك ولكنه متي اقترن بعدالينا يصير لها عليه نفوذ يسمح لى بمفاتحته فى الامر .

ـ وهل تظن انها ترضى بذلك ؟

ـ الم اربها طفلة فهل تنسى واجبات الكنيسة وهل تنسي في اي حضن ربيت !

فلم يرتح لوكا لقول اخيه وقبل ان ينطق بكلمة اخرى ابتعد خطوة او اثنتين وقال باشتياق

ـ هل ذلك المتاع المنتهب الذى تحكي عنه ذو قيمة عظيمة

ـ هذا سؤال اجاوبك عنه فيما بعد اما الآن فارجوان تكون قد اقتنعت بكل ما اخبرتك به وعلمت ان رغبتى فى زواج ابنتك من فابيو صادرة عن مجرد اخلاص لنصرة الحق وليست عن طمع نفساني فانه لو رد حق الكنيسة اليها غدا لما دخل الى جيبي منه فلس واحد وانى كما تراني راهب فقير وسابق كذلك الى آخر ايامى اما انتم ياجنود الدنيا فتشتغلون فيها لنوال اجوركم . وجندى الكنيسة يشتغل محبة فى الآخرة ومرضاة لوجه الله

قال ذلك ثم اسرع الى تمثاله ولم يرض ان يتركه او يتكلم حتى أخذ القلم وفكه قطعا وبعدها سحب درجا من طاولة العمل واخرج قطعة من الورق كتب عليها ما ياتي

« احضري غدا الى دار الصناعة حيث تجدين فابيو اما ثانينا فلن تعود اليه بعد »

وبدون ان يضع امضاءه تحت ما كتب وضع الرقعة في مظروف عنونه باسم الدونا مداليا ثم تناول قبعته واعطى المظروف لاخيه وقال

ـ لتتكرم علي بتوصيل هذا الى ابنة أخي.

ـ وقال لوكا وهو يقلب المظروف بين يديه بحيرة اؤمل يا روكو ان تكون مداليا سعيدة ان هي اقترنت بفابيو ؟

ـ لا تزال عباراتك خشنة أيها الاخ

ـ لا تفكر في عباراتي ولكن خبرني أهذا الزواج مناسب

ـ أظنه كذلك .

ـ نطق الراهب بعبارته الاخيرة ثم صافح اخاه بسرور وانصرف

الفصل الثالث

اتاني ليهديني وما كنت غافلا وما نصحه الا طريق شقائيا
واهون عندي من فراق احبتي لقاء مماتي بينهم في شبابيا

ـ ترك الاب روكو دار الصناعة وذهب الى مسكنه بجانب الكنيسة ودخل الى مكتبه ففتح درجا تناول منه قبضة نقود فضية ثم راجع مذكرة مكتوب فيها جملة اسماء وعنوانات واخيراً أخذ جملة قطع من الورق

ودواة وترك الدار قاصدا افقر جهة بالمدينة فلما وصلها جعل يدخل البيوت الحقيرة بيتا بيتا والسكان تقابله بالترحيب والتهليل كبيرهم والصغير وكانت النساء تتهافت على تقبيل يده وبالجملة فكان احترامهم له يفوق احترامهم لاعظم ملك فى اوربا لو خطر بينهم ـ وكان فى مقابل ذلك يحادثهم بلطف وبشاشة كأنهم جميعا فى درجته وجلس معهم على ارضهم القذرة واخذ يقسم النقود بينهم ـ وكأنه يقضي ديونا عليه ـ حتى انتهت فتفقد مرضاهم وكتب لكل منهم الدواء المناسب ليحضره من دير هناك خصص لصرف الادوية للفقراء بلا مقابل . وبعد ان انتهى من عمله قام والجميع سائر وراءه كالجند يتبع القائد عند عودته ظافرا منصورا ولما انتهي من ربعهم جعلت النساء ثانيا تتهافت على تقبيل يده والرجال ينظرون اليه بانشراح وسرور فحيا الجميع وانصرف ولما خلا بنفسه قصد جهة الكامبو سامبو حتى اقترب من دار نانينا وهناك جعل يتمشي في الشارع مفكرا بضع دقائق صعد بعدها السلم الموصل الي حجرة الفتاة فوجد الباب مغلقا فدفعه بلطف فانفتح فابصر (لا بيوندیلا) جالسة تتناول غذاءها وكان رغيفا من الخبز وعنقودا من العنب وامامها الكلب رابض فاغرا فاه ينتظر ان تقذف اليه بكسرة من خبزها ـ ولم يتمكن الراهب من استكشاف ما كانت تصنع نانينا عند دخوله لان الكلب عند ما رآه نبح فتنبهت واسرعت الى الباب لتنظر من القادم فلما رأته ارتبكت ولم تستطع الكلام الا ان (لا بيوندیلا) هبت من مكانها حاملة الرغيف في يد والعنب فى الاخرى وقابلت الرجل بقولها:

ـ انى اشكرك ايها الاب لتفضلك على بارسال هذا المبلغ الكبير مقابل الحصر التى صنعتها لك وهاهى مطوية هناك وقد اخبرتنى نانينا انها تخجل لتنازلك بحملها فقلت انى اعرف مكان سكنك وارد لو تكرمت وسمحت لى بحملها اليه .

فقال ـ اتقدرين يا عزيزتي على حملها كل هذه المسافة ؟ فاسرعت الفتاة وكسرت الخبز ووضعته فى جيبها واسكت عنقود العنب بأسنانها ريثما حملت الحصر على رأسها ثم قالت

ـ انظر يا أبت ترانى قادرة على حمل ضعفها .

قالت ذلك ونظرت اليه بكبرياء وفخر فالتفت الى نانينا وقال

ـ انى اريد ان اخلو بك لامر ذى بال فهل تأمنين على اختك الطريق ان هي ذهبت وحدها ؟

فاجابت بنغمة خافتة مرتعدة موجهة نظرها الى الارض

ـ انها غالبا تخرج وحدها

فوضع الراهب يده على كتف بيونديلا بلطف وقال

ـ اذاً فاذهبي ولتعودى لاختك باسرع ما يكون

فذهبت الفتاة فرحة وتبعها الكلب وقد لازم فمه جيبها الذى فيه الخبز وبعد ذهابها اوصد الراهب الباب وجلس على الكرسي وامر نانينا ان تجلس على المقعد ثم قال

ـ الا تعتقدين يا نانينا انى صديقك ودائما اسعى فى هنائك وراحتك

ـ اعتقد ذلك يا ابت واعرف انك اعز واشفق صديق .

ـ اذا فاصغي الي وتحققى اني اخاطبك لصالحك ولو ان كلماتى

تؤلمك قليلا

هنا حولت وجهها الما هر فاستمر في حديثه

ـ ولتخبرني الآن أيضا يا اذا قلت ان تلميذنا الفتى الشريف فابيو زارك اليوم ؟

فهبت الفتاة من مكانها مذعورة فقال

ـ اجلسي يابنية فانا لا اوبخك على ذلك انما سأرشدك الى صالح مستقبلك ـ ثم قبض على يدها وكانت باردة ترتعد واتم حديثه ـ انى لا اطلب منك معرفة ما قال لان ذلك يؤلمك وانى اعلم ان شبابك وجمالك قد اثرا عليه لذلك ـ أضرب صفحا عن هذا واحادثك فيما جئتك من اجله وهو انى اسألك يا عزيزتى ان تجمعي قواك وتتدرعي بالصبر وتعديني الا ترينه بعد الآن .

فحولت وجهها فجأة واجابت بحال انزعاج

ـ لا اراه بعد الآن ؟

ـ انك ايتها الفتاة صغيرة بريئة ولكن لا بد ان تكوني فكرت غير مرة في الفرق العظيم بينكما فانت فتاة حقيرة من افقر الطبقات وهو فتى غنى شريف من اكبر طبقات الشرفاء .

فالقت برأسها على ركبتى الراهب واخذت تبكي بحرقة وهمهمت قائلة

ـ أواه يا ابت طالما فكرت فى ذلك وندبت سوء حظى وكم من ليلة قضيتها فى نحيب وبكاء ولقد قال لى اليوم انني مصفرة اللون ظاهرة علىّ علامات المرض غير مالكة لاحساسى فقلت له ان سبب ذلك هو التنكير فى هذه المسألة .

ـ وبماذا اجابك على قولك ؟

فلم تجاوبه فاحنى رأسه ورفعت هي رأسها وحاولت الابتعاد عنه ولكنه امسك بيدها وقال ـ قفي يابنية وخاطبيني بكل حرية كما لو كنت تخاطبين ابا او صاحبا . قولي بماذا اجاب عند ما ذكرته بالفرق بين درجتيكما .

فاجابت وهي لا تزال تحاول ابعاد وجهها

ـ قال انني ولدت لكي اكون سيدة شريفة ويمكنني ان احصل على ذلك متي تعلمت وصبرت وقال انه لو جمعت كل سيدات بيسا الشريفات في جانب والفتاة نانينا الحقيرة في جانب آخر لتركهن جميعا وسدد اليه وقال هذه عروسي ـ وقال ان الحب لا يراعي الدرجات وانه ان كان غنيا شريفا فذلك ما يجعله يسعي في راحة نفسه وسرورها ـ ووالله لقد كاد ينفطر قلبي عند حديثه وقد احببته كذلك اختي حتي انها صعدت فوق ركبتيه وقبلته وحتى كلبنا الذي ينبح كل غريب عند ما رآه اهتز سرورا ودنا منه وجعل يلحس يده فاواه يا ابتاه اواه .. هنا انفجرت الدموع من عينيها وسقطت رأسها ثانيا على ركبتيه فتبسم وانتظر حتي هدأت وقال

ـ هي ان فابيو يقصد حقيقة ما قال ـ ..

فانتفضت من مكانها وعارضت الراهب بثبات لاول مرة منذ دخوله حجرتها وقالت وقد بدأت وجنتاها تحمران وعيناها تلمعان كالسفينة وسط بحر دموعها ـ

ـ تقول يا ابت هي ؟ هذا محال فان فابيو لا يخدعني ابدا والاولى بي ان اموت هنا تحت قدميك ولا اظن به سوءا .

فاشار اليها بهدو ان تجلس مكانها وقال في نفسه

ـ ما كنت احسب ان احساس الفتاة يصل هذه الدرجة ! ثم اعادت هي حديثها وقد خفت صوتها

ـ نعم اموت ولا اشك في صدقه ، فقال بلطف

ـ انني لا اسألك ان تشكي في صدقه ولكن هبي انك تعلمت كل ما انت جاهلة به الآن وما هو ضروري لكل سيدة وهبي انه خالف جميع القوانين التي يتبعها كل من في درجته وتزوج منك على رؤوس الاشهاد غير مبال شيئا فكيف تكون الحال ؟

نعم انه يمكنه ان يفعل ذلك كله وليس له اب ولا ام ولا اقرباء ترده وانما له اصدقاء غلاظ القلوب محافظون على الشرف لا يعرفون مقدارك واهليتك لهذا الزوج فهم متى علموا بدناءة مولدك ينظرون اليك واليه بعين الاحتقار والازدراء وحقيقة انك ان تزوجت منه ستفرحين وتحصلين على سعادة وهناء عظيمين ولكن الا يتكدر عيشه حين ينظر اليه اصدقاؤه بعين المقت والتحقير وخصوصا عندما ينظر السيدات الشريفات لا يحتر منك فهو اما ان يتحمل كل هذه المشاق بالم لا يوصف او يخرج عن الوسط الذي نشأ له وولد ليعيش فيه وانا اعلم انك تحبينه ... فطفت دموعها وهمهمت :

ـ ما اشد حبي واعظم بلائي !

ـ نعم انك تحبينه حبا جما ولكن ايعوض له حبك كل هذه المزايا التي يفقدها ؟ حقيقة انه يعوض في اول الامر ولكن لا يلبث ان يأتي عليه يوم يتملك فيه حب الدنيا والجاه قلبه وعندها يشعر بحاجة لا يمكنك سدادها وكرب لا تقدرين على تفريجه فتفكري في حياتكما اذ ذاك . فكري في اول يوم يرتبك فيه عمله ويشك في صحة اختياره

لك زوجا واعلمي ان شعورنا واحساسنا بني آدم ليس في ايدينا فالاحساس متقلب لا يستطيع المرء كبح جماحه ومهما كان القلب قويا ثابتا فان للشك عليه سلطانا اقوى واثبت ـ يا بنية ان الدنيا قوية ظالمة والكبرياء والعظمة مغروستان في اعماق القلوب وقدرة الانسان ضعيفة واهية فتبصري في العواقب وانظري في صالحك وصالح حبيبك قبل ان يفوت الوقت

فرفعت الفتاة يديها امام الراهب بحال قنوط وقالت

ـ لم لم تخبرني يا ابت من قبل ؟

ـ اني لم اعرف ضرورة اخبارك الا اليوم ومع ذلك فالوقت لم يفت ومتى شاء الانسان عمل الخير فلا ييأس وها انت تحبين فابيو محبة صادقة فهل تبرهنين على حبك بان تقدمي لصالحه ضحية عظيمة؟

ـ اقدم حياتي لصالحه .

ـ انتقذينه من هوى سيكون سببا في دماره وربما في دمارك ايضا بان تتركي بيسا غدا ؟

فاصفر وجهها اصفرار الموت وانتفضت من مكانها وابتعدت عن الراهب نحو الخطوتين وقالت

ـ اترك بيسا ؟ !

ـ اصغي الي فلقد سمعتك تشكين من عدم تيسر اشغال الخياطة لديك وانا اضمن لك لو رافقتني غدا ـ انت واختك بالطبع ـ الى فلورنسا ان تجدي هناك شغلا كافيا

فاجابت برعب

ـ انني وعدت فابيو ان اذهب الى دار الصناعة غدا عند الساعة العاشرة صباحا فكيف ..

ثم وقفت عن الكلام برهة كأن صوتها قد خانها فقال الاب روكو بدون اكتراث بعاطفتها

ـ انى سأوصلكما الى فلورنسا بنفسي واضعكما تحت عناية امرأة تكون لكما بمثابة ام حنون واتعهد لكما بوجود شغل كاف تعيشان من اجره بلا احتياج الى احد وان لم تعجبكما الاقامة هناك فانا اتكفل برجوعكما الى بيسا بعد مضي ثلاثة شهور فقط ـ واظن ان ليست هذه المدة طويلة ياانانينا ؟

فصاحت الفتاة وقد مالت رأسها وغطت وجهها

ـ فابيو ـ فابيو !

ـ تذكرى ان عملك لصالح فابيو .

ـ اواه لو كنت اعرف الكتابة لكتبت له خطابا والا فاذا يقول عنى ان انا ذهبت ؟

ـ الا تعتمدين على فى اخباره بكل ما يلزم ؟

كيف يا أبت افارقه ـ كيف تسألنى ان ابتعد عنه ؟

ـ انى لاأسألك ان تعجلى فى عملك وانما امهلك الى الغد لتتدبري الامر وسأمر بالشارع عند الساعة التاسعة وانت حرة فى القبول او الرفض ولسوف ترينى لا ادنو من الباب الا اذا علمت بقبولك نصيحتي ولتجعلى علامة لذلك وهي ان تهزى برقعك الابيض من النافذة فعندها اعرف انك عزمت على العمل لمنفعة فابيو واني لاقول اكثر

مما قلت فان لم اكن قد أخطأت سمك خطأ فاحشاً فقد فعلت ما يجب .

ثم خرج وتركها غارقة فى بحار دموعها تبكي بكاء مراً ولم يمض الا قليل حتى رأى (لا بيونديلا) والكلب عائدين فلما رأته الطفلة وقفت لتخبره بوصول الحصر ولكنه مر بها مسرعا ولم يكن جوابه الا ان هز رأسه متبسما فقد أثر عليه اجتماعه مع أختها ولم يترك بصدره براحا لحديثها . .

لم تأت الساعة الثامنة ونصف من صباح اليوم التالى حتى قصد الاب روكو شارع نانينا واثناء مروره به أبصر كلبا يسير امامه بكسل وخمول وفى الوقت نفسه نظر سيدة مرتدية بكل دقة واحكام تسير نحوه فلما اقتربت من الكلب نبحها وكشر عن نابه ولكنها لم تكترث به غير انها لفظت بعبارة سخط ومرت في طريقها غير خائفة من تهديده فاعجب الراهب بها وبشجاعتها وقال فى نفسه

ـ انا أعرف هذا الوحش الفظيع ولكن من عسى هذه السيدة تكون ؟

اما الكلب فكان (اسكار اموكسيا) عائداً من احدى غدواته اليومية واما السيدة فكانت بريجيدا قاصدة دار صناعة لوكا لومي

قربت الساعة التاسعة فاخذ الراهب لنفسه موقفا امام نافذة الفتاة واصغى لدقات ساعة الكنيسة وكانت النافذة مفتوحة وليس بها احد وبقيت كذلك نحو الدقيقتين بعد دق الساعة فقال لنفسه ـ أتراها لا تزال مترددة ؟ ولم يكد يتمم العبارة حتى أبصر البرقع يتماوج فى الهواء

القسم الثاني

الفصل الاول

نصبت الشباك لصيد الثراء وليس الثراء كطير يصاد
فان الطيور تصاد بفخ واما الثراء فعفواً يفاد

لم يؤثر خروج المفصلة الطليانية على جريفوني لانها اعتاضت عنها في الحال بالمفصلة الفرنساوية الاان هذه لم تقم بيسا اسبوعا حتى وقعت في مخالب مرض شديد اشيع في المدينة واوله الناس الى اسباب مختلفة والغالب انه نشأ عن انهماكها في الشغل والاقبال عليه بكلياتها وجزئياتها لانسقاط الطليانية الخائنة وعلى كل حال فقد كان المرض شديدا واشار الاطباء بوجوب نقلها الى حمامات لكا بمجرد تمكنها من ترك فراشها

ومن حسن حظ جريفوني ان المفصلة تمكنت قبل مرضها من تجهيز ثلاث عينات من الملابس وضعت بحجرة المرض فاعجبت بها السيدات وكثرت الطلبات من جميع انحاء المدينة وتمكنت العاملات من تقليد العينات بسهولة وليبت جميع الطلبات بما سر الطالبات — ومن هنا لم يعد مرض المفصلة بالخسارة الجسيمة على جريفوني وان يكن حملها شيئا منها — .

امضت المدموازيل فرجيني شهرين في حمامات لكا حصلت بعدهما على تمام الصحة فعادت الى بيسا وتولت اشغالها بحانوت جريفوني ولكنها وجدت به تغييراً عظيما وذلك ان صاحبتها ومساعدتها بريجيدا اعتزلت عملها فجأة ولم تحط المدموازيل جريفوني علما بعزمها على ذلك الا قبل التنفيذ بخمس دقائق فقط ولم تقل اذا كانت عازمة على العودة ام لا وقد مضت

الايام والشهور ولم يأت عنها خبر واخيرا جاء الربيع وكثرت الحفلات والاشغال وانهمكت فيها فرجيني وكانت تتمنى وجود صاحبتها — وبينما هي ذات يوم في عملها اذ وصلتها رسالة تنبيء بعودة بريجيدا الى بيسا وانها تود مقابلتها في مسكنها الخاص بعد انقضاء العمل وطلبت اليها ان ترد لها الرسالة وتخبرها عن مكان اقامتها ففرحت الفضولة بالخبر وردت على صاحبتها تعلمها بما أرادت وعينت لها وقت المقابلة ولما جاءت الساعة المضروبة دخلت عليها بريجيدا بكبريائها المعتاد وسألتها عن صحتها ببرود ثم جلست على كرسي قريب منها بلا اعتناء كأنها لم تغب عنها الا أياما قلائل فضحكت فرجيني ضحكة عذبة ورفعت حاجبيها الفرنساويين الجميلين بحال اندهاش وقالت — حقيقة يا بريجيدا لم يخطئوا في دار جريفوني حيث لقبوك بمن لا تبالي بشيء : فاين كنت كل هذه المدة ولمَ لم تراسليني ؟ — فاجابت وقد استلقت على الكرسي — لم يكن لدي أمر مهم اراسلك بخصوصه وكنت دائما اعزم على العودة الي بيسا لرؤيتك . —

— وهل كنت كل هذه المدة التي تقرب من السنة في ايطاليا ؟

— كلا انما كنت في باريس فانت تعرفين اني قادرة على الغناء وان لم اكن احسنه الا ان صوتي جميل وغالب الفرنسيات (ولا مؤاخذة) عديمات الصوت . ولقد وصلت باريس وكان لي بها صاحب عرفني باحد مديري الجوقات فالحقني بجوقته واشتغلت بالغناء في التشخيص الا ان بنات جنسك الكريمات لم يرقهن ظهوري على المرسح وتعصبن ضدي وآل الامر الى مشاجرتي مع الرئيسة والمدير وصاحبي وها أنا قد عدت الى بيسا وليس معي الا قدر يسير من النقود ولم اصمم بعد على الاشتغال

باي عمل .

ـ ولم تركت بيسا في اول الامر حتى احتجت للعودة اليها ثانيا ؟

هنا تغير شكل بريجيدا ورقصت عيناها واعتدلت على كرسيها ووضعت يدها بثقل على طاولة صغيرة بجانبها وقالت

ـ تركتها لاني متى اجد الرياح تهب بما لا أحب احيد عن طريقها تواً ولا انتظر عبثها بي.

ـ نعم انك تشيرين الى مسألة السنة الماضية ايام عزمت على تشييد صروح مستقبلك بين قاعات النقاش فلتخبريني كيف كان سقوطك لاني مرضت قبل ان تأتيني بشيء من الاخبار وغاية الامر انني بعد عودتي من الحمامات وسماعي بقران الفتى الغاوي بمداليتنا لومي تأكدت من سقوطك ولم ادر كيف ولا اعرف الآن سوى ان مداليتنا اصابت المرمى وفازت بالغنيمة .

ـ خبريني قبل كل شيء هل العروسان في هناء ؟

ـ لم نسمع عنهما الا كل سرور وسعادة فالعروس متمتعة بكل الملاذ حاصلة على كل ما تودّه المرأة ـ لديها الخيول والعربات والخدم واصغر كلب رومي في ايطاليا وقد تم حظها بان رزقت مولوداً

ـ رزقت مولوداً !

ـ نعم مولود وضعته من نحو اسبوع او اكثر .

ـ اتعشم الا يكون ولداً ؟

ـ كلا انها فتاة .

ـ لقد سررت بذلك فالاغنياء دائماً يرغبون ان يكون اول مولود

وارثا ولقد أتت الرياح بما لا يشتهيان وسوف يمكر صفوهما .

ـ رحمتك يا رب . مالي أراك يا بريجيدا في حال وحشية ؟

ـ احقيقة ما تقولين ؟ نعم انني أبغض فابيودى اسكولى ومدالينا لومي فردين كرجل وامرأة وشريكين كزوج وزوجته وسأخبرك بكل ما تريدين في الحال ولكن ارجو ان تجيبيني قبل ذلك عن سؤال لى او اثنين فهل لم تسمعي شيئاً عن صحتها ؟

ـ كيف يتسنى لى ذلك وانت تعلمين ان الخائطات لا يلجن بيوت الاشراف

ـ حقيقة والآن ماذا تعلمين عن الفتاة الغيبة نانينا؟

ـ انني لم ارها ولم اسمع عنها شيئاً واكبر ظني انها ليست ببيسالا نها لو كانت بها لما انقطعت عن زيارتنا طلبا للشغل

ـ انني لم اصب في سؤالي عنها لانني لو كنت فكرت قليلا لرأيت ان الاب روكو لا بد ان يكون قد أبعدها عن نظر فابيو لصالح بنة أخيه

ـ ماذا تقولين أأحب الفتى تلك الفتاة النحيلة البلهاء كما كنت تصفينها ؟

ـ احبها حبا يفوق حبه لخمسين زوجة كالتي معه الآن فانى كنت بدار الصناعة يوم وصله خبر غيابها فقد أتاه خطاب خصوصي نبأه ان الفتاة تركت بيسا بدافع احساسي شريف واختفت في مكان يستحيل معرفته لتمنعه من اسقاط مقامه ان هو اقترن بها . فغضب لذلك غضبا شديداً ووالله لم ار في حياتي انسانا في حاله التي كان فيها اذ ذاك وقد قال

ان ذلك لم يكن عمل الفتاة وانما هو عمل يد خفية تسلطت عليها وتأكد له ذلك عند ما وجد الراهب لم يحضر كعادته وبحثوا عنه فلم يجدوه فايقن انه لابد ان يكون قاتلا بهمته فاقسم ان لا يترك بقعة ارض في ايطاليا الا ويفتشها وانه سيكون بلاء الراهب وحمامه وانه لا يدخل دار لوكا الومي بعد :

— ولكن اراه لم يبر بقسمه ولم يتبع خطة الرجال ؟

— انى بوجودى فى دار الصناعة في ذلك الوقت اكتشفت امرين اولهما ان الفتى احب نانينا والثانى ان مدالينا احبته ولقد نظرت اليها ساعة الهيجان بكل التفات وتبصر وانت تعلمين ان النساء معجبات ولكن العجب لم يؤثر على اذ ذاك فقارنت مابينى وبينها فرأيت طولنا واحدا غير انى اعدل منها قواما وشعرها وعيناها كشعرى وعينى الان بقية وجهها اجمل من وجهي فأنفى كبير وشفتاى غليظتان تغطى عليهما السفلى اما هى فلم يكن فيها شىء من هذه العيوب وقد واست الفتى الاحمق اثناء غضبه كما كنت اواسيه لو كنت فى مكانها

— كيف ؟

— انها وقفت اثناء غضبه وهيجانه صامتة ناظرة الى الارض نظرة الجزع والغالب انها كانت تبغض نانينا وفرحت لغيابها ولكنها اخفت ذلك وقد قلت فى نفسى — انك لمناظرة شديدة حتى لا مرأة أجمل منى فكيف لى . . . ولكننى لم اركن الى اليأس من اول الامر فخاطبت المعلم لوكا فى موضوع ذهابى وتعلقت له فى الحديث كثيرا فقلت ان جميع اعماله كانت موضع اعجابي منذ ايام صغرى وانى لما سمعت انه

تعب فى البحث عمن ينقل عنها بقية تمثال منير فما قدمت شيء له ان وافقته لا تشرف بالجلوس امامه وهكذا جعلت ازين له الحديث ولا ادرى ان كنت خدعته ام لم افعل فانه قبل التماسي وشكر لى احساسي ثم افترقنا بعد ان اتفقنا ان يكون اول جلوسى له بعد اسبوع

ـ ولم اطلتما الميعاد هكذا ؟

ـ لا منحه وقتا كافيا يتمكن فيه من ارضاء خاطر فايبو وارجاعه الى عمله والا فما فائدة وجودي هناك وهو بعيد عنى ؟

ـ حقا نسيت ذلك . وهل عاد بعد هذه المدة

ـ ان وقتي كان اكثر مما احتاج اليه لتسكين غضبه فاني عند ذهابي وجدته هناك وعلمت انها ثاني زيارة له بعد اختفاء الفتاة وهكذا الرجل العنيف متغير عديم الثبات .

ـ الم يعزم بعد ذلك على البحث عن ناينا ؟

ـ انه بحث عنها بنفسه وارسل غيره يبحثون ولكنه لم يقف لها على اثر وخاب مسعاه بعد ان قضى اربعة ايام فى شقاء وبحث واخيرا قطع حبال آماله وعاد الى صوابه وكتب له لوكا يستسمحه ويسأله اى ذنب له ولا بنته لو فرض ان الاب روكو ملوم ـ وقابلنه مدالينا فى الطريق فحولت وجهها عنه كأنها عارفة انه يمر بها ولا يخاطبها وبالاختصار فقد اعادوه الى رشده واخلاقه الحسنة فعاد اليهم ولكنه لبث فى اول الامر صامتا كئيبا الا انه كان كالوحش الضارى فى معاملة الراهب .

ـ اعجب كيف تجرأ الاب روكو على المثول فى حضرته ؟

ـ ليس الاب روكو بالرجل الذى يرهب غيره او يهزم فى مواقف

الخصام فلقد عاد الى دار الصناعة يوم عودة فابير اليها وكان ثابت الجأش وقال ان الفتاة فعلت الصواب وما يجب على فتاة شريفة ان تفعله ولم يقل شيئا عن علمه بغيابها من قبل وقد سئل كثيرا ولم يجب قط بغير قوله انه ليس لاحد الحق ان يسأله وقد وجهت اليه عبارات التهديد والتملق والرجاء فلم يعبأ بها فلتتأكدي ان الاب روكو امهر واكمل رجل ببيسا وهو البلاء ان عادى والهناء ان صافى. واعلمى انى لما بدأت استعمل حيلى عاملنى الجميع معاملة وحشية اما هو فعاملنى من اول الامر الى آخره معاملته لسيدة شريفة ولا يهمنى ان كان ذلك منه قلبيا ام لا فقد عاملنى الجميع كـ..

— كفى كفى لا تغيري دمك بهذه الذكرى وخبريني كيف بدأت عملك مع الفتى الذى تتكلمين عنه الآن باحتقار؟

— انى بدأت الحديث معه والتقرب منه بان اخبرته انى اعرف نانينا وصرت اشي له بها فقلت انها لو كانت تهواه وحده لما فارقته ولا بد ان له مناظراً من درجتها اسعد منه حظاً عادت اليه معززة مظهرة كبرياءها وعجبها اذ وطئت بقدمها عواطف وعظمة شاب شريف فلم يرض الفتى فى أول الامر ان يصدق ادعائى لأنقته وشغفه بالفتاة. وأخيراً نجحت فى عملى وصرفته عن التفكير فيها وهنا بدأت الرياح تهب ضدى بعد ان كانت في ناصرى وذلك ان مدالينا دخلت فيما بيننا فوجدت الطريق ممهدة فتأزت بغيمتي وخسرتها ولم تعطنى اجر شبا كي لذلك ترينى ابغضها وافرح لاى خبر سيء اسمعه عنها.

— وكيف كان انتصارها عليك؟

ـ انها لم تكن لتظفر بي لولا ان فرصها لمقابلته كانت اكثر من فرصي وقد استعملتها في الحيل والخداع والايقاع بي من حيث لا أشعر حتى انني كنت احسبني في نجاح والحقيقة انني في خسران واول من بدأ الاذي ابوها فقد تغير خلقه نحوي وصار يعاملني ببرود وغلظ شديدين ففتحت عيني وعلمت ان في الامر سراً غائباً عني وفي صباح يوم من الايام سمعت فابيو ومدالينا يتحدثان بشأني ولا يمكنني ان أعيد ما قالا وخصوصاً عليا! فانني كلما ذكرتهما يصعد الدم الى رأسي ويجمد في قلبي ويكفي ان اقول لك انه ضحك علي وانها ...

ـ صه لا ترفعي صوتك كذلك ففي الدار سكان آخرون ولا لزوم لاخباري بما سمعته لان ذلك يكدر صفوك بلا داع ويمكنني ان افكر في انهما اكتشفا ..

ـ تذكري انها هي الاصل في كل ما حصل

ـ نعم نعم اني فهمت انهما اكتشفا جزءا اكبر مما كنت تؤملين وهي السبب في ذلك .

ـ لولا الراهب يافرجيني لاهنت اهانة شديدة وطردت من بينهم باشنع حال فهو قد لامهم على معاملتهم لي بتلك الاخلاق الخشنة فنسبوا ذلك الى خوفه مني وانه اراد ان يخيفهم ايضا وهذا آخر ما سمعته ولا تسلي عما لحقني من الغيظ والكدر ولكني اجتهدت في اخفائه وصممت على عدم العودة الى دار الصناعة مرة اخرى فقصدت الباب وكنا اذ ذاك وقت الغروب فنظرت ورائي واذا به وحده واقف ينظر الي ويظهر انه علم بما عزمت عليه ولكنه تجاهل وسألني بأدب ولطف كعادته عما اذا كنت

فقدت شيئا ابحث عنه وهل انا فى حاجة لمساعدته فشكرت له جميله واردت الخروج ففتح الباب وانحنى بكمال والحق يقال لقد عامل ذلك الراهب الى آخر لحظة معاملته لسيدة غنية شريفة . ومن ثم تركت بيسالا لوى على احد . وهاانت قد أحطت بكل شىء علما

ـ وهل سمعت بخبر زواجهما ام عرفت ذلك بقرائن الاحوال ؟

ـ انى سمعت به منذ ستة شهور فقد التحق بجوقتنا فى باريس ممن قال انه كان مشتغلا فى مهرجان عرسهما والآن لنقفل باب هذا الموضوع فانه يحمى واري مكانك هذا غير صحى

ـ أأفتح النافذة ؟

ـ الاوفق ان نترك الدار لاستنشاق النسيم على شاطي النهر وقد بدأ الظلام فلا يرانا احد ويمكننا العودة بعد نصف ساعة فهيا البسي قبعتك واحضرى مروحتك وقومي بنا .

فوافقت فرجيني صاحبتها على غير رضا وتركا الدار وكانت الشمس مائلة الى الغروب والظلام مقبلا بسرعة ولو ان بريجيدا لم تنطق بكلمة اخرى عن خصيمتها الا انها قادت رفاقتها الى نهر الارنو حيث توجد سراى فابيو وبينما هما بالقرب منها اذ ابصرا عربة مسرعة السير تقل احدى السيدات وقفت امام الباب وهبط السائس عن مقعده ودنا من السيدة فخاطبها مليا ثم قصد بواب السراى فتركت بريجيدا صاحبتها فى سيرها وتتبعت الخادم بسرعة ودخلت وراءه من الباب الصغير واختفت فى ظل البوابه فسمعته يقول

ـ ان المركيزه ميلانى تستفهم عن صحة الكونتيس دى اسكولى و طفلها وكيف هما الليلة .

فاجاب البواب

ـ سيدتى على حالها لم تتغير عن الصباح واما الطفل ففى تقدم

فقصد السائس المربة ثم عاد ثانيا وقال

ـ تسأل المركيزه عما اذا كنتم ارسلتم لطبيب آخر ؟

ـ نعم وصلنا اليوم طبيب من فلورنسا

نظرت المدموازيل فرجينى فلم تجد جارتها بجانبها فعادت نحو السراى تبحث عنها فاخذها الاندهاش حين نظرتها خارجة من باب السراى الصغير وقد وقع على وجهها نور مصباحى البوابة عند مرورها تحتهما فاذا بها تبتسم .

الفصل الثاني

بينا اواسي عليلا بيننا صلة زادت رسوخا بشرع الله والوا
اذجاءني ذكر من اهوي فخلفني ما بين نارين في قرب وفي بعد

بينما المركيزة ميلاني تستفهم عن صحة الكونتيس كان فابيو جالسا بحجرة زوجته ينتظر تقرير الاطباء عن صحتها وكانت الحجرة بهية فرشتها حسب رغبتها بستائر وفراش من الحرير الاصفر

ولو ان مدالينا لم تكن اول محبوب لفابيو الا انه تزوجها على شروط ربما ضمنت سعادتها لزمن غير قصير وقد اجتهدت في ارضائه والعمل حسب رغائبه غير انه حصل منها هفوات لم يكن ينتظرها ولكنه نسي ذلك الآن وفكر انها ام مولوده وقد سقطت في ايدي مرض قتال وليس بينه وبين سرير نومها الا حجرتان

في ذلك الوقت كان الظلام يتكاثف شيئا فشيئا فمد يده الى الجرس ودقه طلبا لانارة المكان فدخل الخادم فسأله والحزن بادٍ على محياه وفي لهجة حديثه عن صحة سيدته فقال انها لا تزال نائمة

ثم خرج بعد ان ترك خطابا مختوما على الطاولة بجانب سيده فدعاه ثانيا وسأله عن وقت وصول الخطاب فقال انه وصل منذ يومين وانه وجده اليوم على احد ادراج مكتبه مختوما كما هو فاتى به له فامره بالانصراف فانصرف وبقي في المكان وحده فتذكر ان الخطاب وصله وقت ابتداء اعراض الحمى الشديدة عند زوجه فرماه غير مكترث به وخصوصا لانه وجد خطه غريبا عنه اما الآن فوجد نفسه في خلوة

تزيد آلامه فاراد ان يشغل نفسه فتنهد طويلا ثم فض ختام الخطاب وقرأ امضاء باعثه واذا به ـ نانينا ـ فهب من مكانه مندهشا وتغير شكله وهمس فى نفسه قائلا ـ خطاب منها! وما الداعي لوصوله فى مثل هذا الوقت؟

ثم زاد اصفرار وجهه وارتعشت يده وجعلت الاوهام التي ورثها من الصغر ـ كما قال للأب روكو ـ تنتاب عليه فتردد ثم أصغي جهة باب حجرة امرأته ليرى هل كان وصول الخطاب دليل خيرا وشر ثم سحب المصباح نحوه وقد ملأت هذه الافكار مخيلته وقرأه فاذا به مبتدأ باختصار هكذا

« أأخطأت في كتابتي اليك ؟ ان كان كذلك فلتقذف برسالتي الى النار ولا تفكر فيها بعد فانى لا الومك على ذلك اذ لا سبيل الى اللقاء .. اتعرف لم تركت بيسا ؟ انى لم اتركها الا لا منعك عن زواج فتاة فقيرة تنزل من قدرك ومرتبتك بين الناس .. وقد كاد فؤادى يتفطر عند فراقك لو لا علمت نفسى بانى انما اقوم بعمل فيه صالحك ولولا هذه الذكرى وملازمتها لى فى كل مكان وزمان لما استطعت البعد عن بيسا برهة واحدة ولقد تمنيت ان اراك مرة اخرى لاعلمك ان نانينا لم تكن غليظة الفؤاد ناكرة للجميل وانك ستشفق عليها وترأف بها وان تكن لا تعود الي حبها ثانيا

« كان جل مرادى ان اخبرك بهذا ولو اننى كنت سيدة لا غبار عليك بالكتابة ولكنى لم اتعلمها ويستحيل على ان اطلع آخرين على اسرارى وأسألهم الكتابة عنى فوجهت كل اهتمامي لتعلمها سرا فأخذ منى ذلك زمنا طويلا الا ان املى فى الحصول على مرادك واخبارك الحقيقة جعلني

وشجعني حتى تعلمت كيف اكتب لكي لا اخجل من نفسي او اجعلك تخجل مني . و بعدها بدأت بتسطير اول خطاباتي اليك ولكنني لم اتمه منه حتى سمعت بزواجك فمزقته ووضعت القلم في جرابه

« ليس لي الحق في التداخل بينك و بين امرأتك ولو بشيء حقير كخطابي وليس لي الحق في عمل اي شيء غير الدعاء لك بالسعادة والرفاء . . او لست ممتعا بهما ؟ نعم والا فكيف تحبك امرأتك

« يصعب علي ان اعبر عن الدافع الذي يمشي الى تسطير خطابي في مثل هذا الوقت ولكن لتعلم ان لي صاحبا في بيسا يحيطني علما بكل تغيير مفرح يحدث في حياتك — وهذا حسب رغبتي — وقد نبئت اخيرا انك رزقت طفلة فسطرت هذه الرسالة وانا واثقة انها لا تؤثر على محبتك الواجبة عليك لامرأتك اذ ارتبطتما معا بهذه الرابطة المتينة واني ارجو لطفلك الصحة الجيدة والهناء ولا ارانى مخطئة في ارسال هذا لاشاركك في سرورك

« اخبرتك بكل ما اردت وبلغت نفسي أمنية تمنتها من نحو العام فها انا لي هنيئا بسبب تركي بيسا واظنك فهمت اني كابدت بعض المتاعب والآلام من اجلك فهل ترى قد انتهى كل ما يلزمك معرفته ؟ لا لدي كلمة او اثنتان اريد ان اسطرهما . . ذلك اني احصل الآن على قوتي كما كنت قبله ولست في احتياج الى شيء وانا مقيمة مع اناس كرام . وقد كبرت لا تعوقني ولا اخالها تسر بصعودها على ركبتيك وتقبيلك كما كانت تفعل قبل وهي الآن تصنع حصرها باتقان عظيم وكلبنا لا يزال معنا وقد تعلم حيلتين جديدتين فهل انت ذاكره ام نسيته ؟ اظنك قد نسيته ولو انه لم يعامل غريبا غيرك عند اول رؤيته له باللطف الذي عاملك به

« لقد انتهيت من خطابي واملي ان كنت قرأته لآخره ان تسامحني على رداءة كتابته فاني لم اضع له تاريخاً لاني رأيت انه اسلم عاقبة واصلح لنا الا تعرف مكان اعيش وانى لادعو لك بالسعادة واحافظ على محبتك واستودعك الله وداع الروح للجسد وان قدرت ان تذكرني بعد كأختك فافعل . »

فتنهد فابيو تنهدا طويلا وقال في نفسه .. لم وصلني خطابها في مثل هذا الوقت الذي لا اقدر فيه بل لا اجسر ان اذكرها: ثم طوى الخطاب وقد ملأت الدموع محجريه ودفعه نحو شفتيه ليقبله وما كاد يفعل حتى سمع نقرا على الباب فهب وشعر ان لونه يتغير خجلا وقد فاجأه احد الخدم بوجه عبوس وخلق متغير وقال

ـ لقد تنبهت سيدتى وامرني الاطباء ان اقول ...

ولم يكد يتم رسالته حتي قاطعه احد الاطباء الذى تبعه الى حجرة سيده وقال بلطف

ـ وددت لو تكون لدى اخبار حسنة احملها اليك . فقال فابيو وقد سقط على كرسيه الذى كان جالسا عليه

ـ اذاً فالها ارداً . فأجاب الطبيب متأسفاً

ـ لقد استيقظت من نومها اضعف مما كنت انتظر الا انني لا اقطع الأمل حتي آخر نسمة ولكن ...

هنا قاطعه صوت الطبيب الذى حضر من فلورنسا فقد دخل الحجرة فى هذه اللحظة وقال:

ـ من العبث ان تطيل معه الحديث ـ ثم وجه حديثه لفابيو فقال ـ

ادّرع بالصبر لسماع أسوأ الاخبار فانها في حال النزع فهل تتجلد وتذهب الى حجرتها ؟

فقام فابيو من مكانه اصفر اللون صامتا واشار بالايجاب ولكنه كان يرتجف حتى ان الطبيب الاول التزم ان يقوده ثم سأل طبيب فاورنسا الخادم وكان قريباً منه

ـ اليس لسيدتك اقرباء في بيسا ؟

ـ بلى يامولاى لها ابوها السنيور لوكا لومى وعمها الاب ركو وقد كانا هنا من اول النهار ولم يذهبا الا بعد نومها

ـ اتعرف اين مكانهما الآن؟

ـ اخبرني السنيور نوكا انى اجده في دار صناعته والاب روكو في مسكنه .

ـ اذا فارسل لهما في الحال ولكن قف وخبرني من هو قسيس سيدتك فانه لا بد ان يحضر بلا توان؟

ـ انه يامولاي الاب روكو .

ـ حسن فترسل لهما او اذهب بنفسك حالا فليس لدينا وقت للامهال .

قال ذلك وجاس على الكرسي الذى كان فابيو جالسا عليه وجعل ينتظر طلبه الاخير للمريضة

الفصل الثالث

واذا اراد الله كشف خفية كشفت برغم محاذر وممانع
واذا المصائب قد دنت نحو امرىء هجمت وليس لجيشها من دافع

قبل ان يصل الخادم مسكن الاب روكو وصله زائر ضئيل الجسم انيق الملبس مؤدب في اقواله وافعاله طلب مقابلة القسيس فقابله وانحنى عند جلوسه ثم انحنى عندما سأله عن صحته وانحنى ثالثا عندما سأله عن السبب الذي جاء به من فاورنسا وفي هذه المرة ارتبك برهة ثم تمالك نفسه واجاب

— جئت لامر غير مرضي وذلك ان الفتاة نانينا التي وضعتها تحت ملاحظة امرأتي من نحو سنة مضت . . .

فقاطعه الراهب بلهف

— ما اذا اصابها ؟

— آسف ان اقول انها قد ارتحلت هي واختها الصغيرة وكلبهما الذي ينبح كل من يراه

— ومتى كان ذهابها ؟

— كان ذلك امس وقد جئتك في الحال لاخبرك اذ اوصيتنا بالاعتناء بها وملاحظتها ولم يكن العيب في خروجها منا فقد كانت امرأتي الشفيقة محسنة في معاملتها واما انا فكنت اعاملها كسيدة شريفة دائما اشتري حصر اختها واضرب صفحا عن سرقات كلبها ونباحه

— ألم تكتشف بعد أين ذهبا ؟

انى باستفهامي من ادارة (الباسبورت) علمت انها لم تترك فلورنسا ولم يكن لدي وقت كاف اعرف فيه اين تقيم

— نانيتا لا تفعل شيئاً بلا سبب ولا بد ان يكون هنالك داع لخروجها فما هو؟

فتردد الرجل برهة ثم انحنى وقال

— انك تذكر وصيتك لنا ايام احضرتها لدينا؟

— نعم اذكر ذلك وقد طلبت اليكما ان تلاحظاها لانه كان من الممكن اذ ذاك ان تعود الى بيسا بدون علمي وكل اعمالى تتوقف على بقائها بعيدة عنها واني لآسف على عدم ثقتي بها الا انى كنت مجبرا على ذلك لانه لا يصح للمرء ان يظن بالناس حسنا بلا تروٍ ولذلك شددت عليكما في ملاحظتها والى هنا اراك مصيبا فى اقوالك ولا اعارضك في شيء ثم ما ذا؟

— وتذكر ان اول ما لاحظناه بناء على وصيتك انها كانت تتعلم الكتابة سرا وقد احطناك علما بذلك فى وقته؟

— نعم واذكر ايضاً اني ارسلت لكما الا تظهرا لها انكما اكتشفتما سرها بل اتركاها حتي اذا رأيتماها استعملت تعلمها فى كتابة خطاب او مراسلة اى انسان فاخبراني وقد قلت لي فى تقريرك الشهرى انها لم تفعل شيئاً من ذلك القبيل.

حقيقة لم ترسل شيئاً الا من منذ ثلاثة ايام حيث افتضت اثرها الي البوسطة وكانت تحمل رسالة وضعتها بصندوق البريد

— وهل عرفت العنوان قبل خروجها

فاجاب الرجل وقد احمر لونه ونظر الى الراهب نظرة الخجل كانه ينتظر ان يوبخه

— بكل اسف لم افعل .

ولكن الاب روكو لم يقل شيئا فقد كان مفكرا فيمن هو الذي تراسله نانينا وقال في نفسه ان كانت بعثت بخطابها لفابيو فالها انتظرت اشهر طوالا بعد تعلمها الكتابة لم ترسله في اثنائها واذا لم يكن لفابيو فلمن اذا ؟ ثم قال الرجل بصوت هادئ معتذرا

— انى اندم لعدم اكتشاف العنوان وآسف شديد الاسف .

— هيهات ينفع الندم .. انما خبرني كيف تسنى لها ان تترك داركم فانى لم اسمع ذلك بعد ولكن اوجز المقال فانى انتظر من برهة الى اخرى دعوتي الى دار قريب عزيز على يقاسي آلام مرض شديد وسترانى مصغيا اليك تمام الاصغاء .

— لك ما تشاء فسأكون الايجاز نفسه .. اولا اظنك تعلم ان عندى او بالاحرى كان عندى تلميذ فظ غليظ .

فاشار الراهب بالايجاب

— ثانيا اخبرك ان ذلك الخبيث قد وقع فى حبال غرام نانينا

فبهت الاب روكو واصغى بالتفات ولهف

— وانى لا اقول غير الحق ولا اهضم الفتاة حقوقها انها لم تشجعه على عمله وكلما تصدى لها تجنبته بسكوت وادب

— انها لفتاة طيبة وقد قلت ذلك مرارا فمن الخطأ الا اثق بها :

— وقد اتضح لى اخيرا ان ذلك الخبيث قد فتح درجى واطلع على

اوراقي السرية

كان يجب ان تحرق كل الاوراق السرية ولا تحفظ منها شيئا

ـ سأفعل ذلك في المستقبل واحترس تمام الاحتراس

ـ وهل كان بين اوراقك شيء من خطاباتي لك بخصوص نانينا ؟

ـ عفوا يا مولاي عفوا فقد كان فيها واأسفاه ولكن ذلك لن يحصل ابداً

ـ انك تعذر على طيشك هذا ولكنه درس لمستقبلك . واظن تلميذك قد اطلع نانينا على خطاباتي ؟

ـ انى اظن انها اطلعت عليها الا اني لا ارى وجها للظن انه هو الذي اطلعها .

ـ ما هذه الفباوة الم تقل انه احبها ولم تشجعه على حبه ؟

ـ نعم قلت ذلك وهي الحقيقة .

فهلا ترى ان من صالحه ان يطلعها على خطاباتي ويعلمها انها في دارك تحت المراقبة فتصبح مدينة له بعمله وربما امل ان يجلب بذلك رضاءها عنه ومحبتها له بعد صدودها ؟ غير ان هذا ليس بيت القصيد انما انت قلت لي انك تظن انهما اطلعت على خطاباتي فلام تبنى ظنك ؟ فقال الرجل وقد اخرج من جيبه رقعة من الورق

ـ بناء على هذه الرقعة فالغالب انها اطلعت على خطاباتك عند وضعها خطابها بصندوق البريد فانى لما عدت في مساء ذلك اليوم وجدتها قد ذهبت هي ورفيقتها وابصرت بهذه الرقعة على المكتب .

فتناول الرأس الورقة وقرأها فاذا بها

ـ لقد اكتشفت امرنا اني كنت في داركم تحت المراقبة من ساعة

دخلته فضال ان ابقي ليلة اخرى بدار جاسوس وها انا واختي ذاهبتان ونحن حرتان نعيش اينما نحب ولسنا مدينين لك بشيء . وان قابلت الاب روكو فقبره انني اسامحه على عدم ثقته بي ولكني لا انساها فانني لشدة ثقتي به كنت احسب انه مثلي ولقد كنت اعلل نفسي بالصبر كلما فكرت فيه كاذب وصاحب اما الآن فقد فقدت هذه الملالة وقطعت حبال آخر امل لي في الحياة . .

(ثانيتنا)

قرأ الراهب الرقعة ثم ناولها للزائر وهب واقفا فوقف الآخر فقال

ـ يجب ان نصالح الامر باحسن طريق فهل انت مستعد للعودة غدا؟

فأنحنى الرجل فقال الراهب

ـ اذا فابحث عن مكان اقامتها وسل عما اذا كانت في حاجة لشيء وهل هي في مكان آمن ولا تذكر لها عني شيئا ولا تظهر لها رغبتك في عودتها الى داركم وغاية الامر ان تخبرني بما تفعل ولا تزد عما آمرك به واياك والطيش في هذه المرة واعلم ان في الفتاة سرا لا يعرفه كل انسان فيجب معاملتها باللطف والمعروف فلنسع في راحتها ولا نتركها وهذا كل ما اقوله فهل لديك خبر آخر تطلعني عليه ؟

فهز الرجل رأسه وكتفيه فقال الراهب

ـ اذا أسعد الله مساءك

فرد الرجل التحية وانصرف وبعد خروجه تمشى الراهب بضع خطوات في مكتبه وقال

هذا مالم اكن انتظره فمن القبيح اني لم اثق بالفتح منه انها اكتشفت ذلك وليس لدى الآن الا ان انتظر حتى اعرف مكانها فاتي اوردها واحب المذكرة التي تركتها فانها مكتوبة بعبارة تدل على الشجاعة والرقة والشرف فالطيها واكلمها فتاة :

ثم قصد النافذة واستنشق شيئا من النسيم النقي وصرف الموضوع من فكره بلطف وعاد الى مكتبه وليس في فكره الا ذكر ابنة اخيه المريضة فقال

ـ من الغريب انه لم يأتني خبر عنها حتى الآن ولكن ربما بلغ لوكا شيء فلاذهب انا الى دار الصناعة واستفهم منه .

ثم تناول قبعته وقصد الباب ففتحه وبينما هو على وشك الخروج اذ فاجأه خادم فابيو عند المدخل وقال

ـ جئت لاستدعيك الى السراي فقد قطع الاطباء كل عشم فاصفر لون الراهب وتقهقر خطوة وقال ـ أأخبرت اخي ؟

ـ جنتك اولا وسأذهب اليه في الحال .

ـ سأذهب نيابة عنك حاملا له الخبر المشؤوم

ثم هبطا السلم معا وما كادا يفترقان في الشارع حتى استوقف الراهب الخادم وسأله باشتياق شديد ـ كيف حال الطفل ؟ فاجاب الخادم وقد دهش لحال الراهب ـ الطفل في غاية الصحة .

فمشى روكو وقال ـ ان في ذلك مشورة . وبعد ان سار برهة وابتعد عنه الخادم وقف في الطريق مفكرا قليلا وقال في نفسه ـ لقد خابت آمالي في ارجاع حقوق الكنيسة بواسطة زوج الناهب والامر الآن

على حياة الطفلة فهي بصفتها ابنة فابيو ستحمل المال الى الكنيسة بدلها .

ثم اسرع في خطاه قاصداً دار الصناعة حتى وصل الى قنطرة على النهر لا بد له من عبورها وهناك وقف فجأة كان طرأ عليه فكرهام وكان القمر قد أشرق فالقى شعاعه على النهر وعلى وقوفه بجانب حائط القنطرة بحيث ظهر النور على رأسه ووجهه وكان في الطريق اذ ذاك امرأتان تسيران نحوه وهما تتحادثان ولكنه لشدة تفكيره لم يسمع شيئا من حديثهما حتى مرتا به ولمحته اطولهما فتأملته ووقفت امامه وقالت

ـ الاب روكو ؟ فاندهش عند رؤيتها ولكنه تمالك نفسه وصاح ـ الدونا بريجيدا ؟ انى لاشكر لك تفضلك على بتجديد عهد وداد ناوارجوك السماح اذا تركتك الآن قاصدا دار صناعة اخي لاقويه على احتمال داهية دهماء ستحل بناء فقالت بريجيدا

ـ لقد سمعت الليلة بمرض ابنة اخيك الخطر واظنك تشير اليه فادعو الله ان يشفيها ويصرف مخاوفك ويجمعنا بك في سرور فلا عزم لى الآن على ترك بيسا وانى لاشكر للاب روكو دائما أدبه وكماله اللذين عاملني بهما منذ عام مضى ـ قالت ذلك ثم حيته وانصرفت لتلحق بجارتها وكان الراهب قد لاحظ ان فرجينى تحاول الاصغاء بدقة لسماع شيء من حديثهما فحذا حذوها وأصغى لحديثهما حال سيرهما فسمع الطليانية تقول

ـ انى لا هنيك يا فرجينى لباسا جديداً اذا تزوج فابيو ثانيا

ـ سمع ذلك نبهت وعلى فمه وكأن الارض تحته تحولت الى جمر فقال

ـ هذا هو الفكر الذي طرأ على عندما حادثتني ولقد أخذ مني مأخذا عظيما فكيف تكون الحال ان هو تزوج من امرأة ثانية لا سلطة لي عليها ولا نفوذ .. امرأة لم اربها ولا يمكنني ان اقضي بواسطتها مطالبي ؟ امرأة تملك قياده وتخيب آمالي فلا استطيع رد حقوق الكنيسة التي طالما تمنيت وصليت من اجلها وعبدت الله

وقف الراهب بعد ان قال ذلك شاخصا الى السماء لا يتكلم وكانت المرأتان قد تركتا القنطرة ولم يبق بالمكان غيره يحيط به نور القمر ولكنه لم يلبث ان القى بيده على حاجز القنطرة غاضبا ثم التفت بلطف الى الطريق الذي سارتا فيه وقال

ـ انى لاهدينك يادونا بريجيدا خمسين ثوبا جديدا ان لم يتزوج فابيو ثانيا . ثم توجه نحو دار الصناعة وسار حتى وصلها ودق الجرس وفي أثناء ذلك قال في نفسه ـ لم تريدين يادونا بريجيدا ان يتزوج ثانيا ؟ ألم يكفك سقوطك الاول فاردت ان تلعبي دورا آخر ؟

فتح لوكا لومي الباب بنفسه وسحب أخاه بسرعة الى مصباح ضئيل بين الحجرتين وقال

ـ خبرني الحقيقة يا أخي بلا امهال أسمعت شيئا عن فتاتنا المسكينة ؟

فقال الراهب بنغمة هادئة محزن ـ استمع وتجلد فقد وصلتني اخباره فشد لوكا قبضته على ذراع أخيه وتأمل في وجهه وقد انقطع نفسه ولم

يقدر على الكلام فقال روكو ثانيا

ـ تجلد يا لوكا تجلد واسمع أسوأ الاخبار فقد قطع الاطباء كل عشم فانحلت قوي لوكا وفك قبضته وصاح صيحة اليأس

ـ وابنيتاه ٠ مداليتا ٠٠ ابنتي الوحيدة !

ثم جعل يكرر هذه الالفاظ وأخيرا اخفى رأسه واستسلم للبكاء لانه وان كان خشنا قاسيا الا انه كان يحب ابنته حبا مفرطا وقد قدم قلبه شطرين احدهما لها والآخر للتماثيل ثم أفاق من سكرته وكأنه شعر بتغيير في حال نور الحجرة فنظر واذا بأخيه قد حمل المصباح في يده ووقف بعيدا بقرب الباب وكانه كان ينظر الى شيء فقال

لماذا أخذت المصباح يا روكو وماذا تصنع هناك ؟

فلم يتحرك الراهب ولم يجبه بلفظ واحد فدنا منه بضع خطوات وقال ثانيا ـ ماذا تصنع هناك ؟ فسمع الراهب في هذه المرة وجاء فجأة نحو اخيه والمصباح في يده حتى انه أدهشه فقال ـ ماهذه الحال يا روكو ؟ رب ماله اصفر هكذا !

ومع ذلك فلم يجب روكو بشيء بل وضع المصباح على أقرب طاولة له وقد لاحظ أخوه ان يده ترتجف ولم يره مدة حياته في حال كهذه فانه عند ما اخبره اولا ان حياته مداليتا على وشك الخمود قالها بثبات ولو ان نفسه كانت محزنة فعجب مما آلت اليه حاله ولم يعرف سبب ذلك الا ازعاج الخفي الرهيب فلاحظ الراهب التفات اخيه اليه فقال ـ

ـ هيا لنذهب الى السراي فليس لدينا وقت كاف فالبس قبعتك ودع المصباح فسأطفئه

ثم اطفأ المصباح بسرعة أثناء حديثه وتركا الدار جنبا الى جنب وكان نور القمر داخلا من النافذة مضيئا على المكان الذي كان الراهب واقفا فيه حاملا المصباح فلما مر به لاحظ اخوه انه يرتعش وقد حول عنه وجهه

لم تمض ساعتان حتى تفرق الزوجان الى الابد وكان الخدم في السراي يهمسون لبعضهم لتجهيز ممدات حفلة الجناز لدفن سيدتهم بمدفن الكابوسانتو

القسم الثالث

الفصل الاول

واذا تظلمت السعادة لامرىء القت مراسيها على ابوابه
وسمت اليه كما يحب بغير ما تعب يراه وفاز في اترابه

مضى على موت الكونتسه دي اسكولي ثمانية اشهر شاع بعدها في المدينة خبران ادهشا الجمهور وافرحاه اولهما انه سيقام بسراي المركيز ميلاني مهرجان عظيم للاحتفال بعيد ميلاده وسيكون المهرجان شاملا لحفلة رقص عظيمة يتلثم فيها المدعوون ويتخفون فقرح الناس لهذا الخبر لانهم جميعا علموا كرم المركيز ورقته وانه لا يوجد في بيسا من ينازعه في كرمه وجاهه وانه اذا تمت هذه الحفلة لابد ان تكون اكبر الحفلات واعظمها يكون فيها من أنواع الرقص وملابس الخفاء مالم تره عين من قبل

اما الخبر الثاني فهو ان الفتى فابيو دى اسكولى سيعود الى بيسا بعد ان قضى مدة طويلة فى السياحة بالممالك الاجنبية تبديلا للهواء وطلبا لتحسين صحته بعد وفاة امرأته وانه سيحضر حفلة ميلاني فدهش الناس لهذا الخبر وفرحت له الفتيات فرحاً شديداً وتنبأن كما تنبأت بريجيدا من ثمانية اشهر ان قصده من حضور هذه الحفلة اختيار ام ثانية لطفلته وكان فابيو اذ ذاك على باب الثلاثين من عمره فجعلت السيدات المتزوجات يتمنين حصول الاشاعتين ولم يكذب الخبر فقد اخذت سراى ميلاني فى اعداد لوازم الفرح وعاد فابيو الى سراى نهر الارنو

لم يرض المركيز ميلانى ان تكون حفلته بسيطة كما فعل سواد بل اظهر شذوذه عمن فى درجته واعد اخر انواع ملابس التخفى ليلبسها اعز اصدقائه واعد محالا لجميع انواع الرقص واستحضر كل مايلزم لاتمام السرور من فلور نسا ولم يرض ان يكون الخدم من رجاله كما يفعل اقرانه فى حفلاتهم اذ يشغلون خدمهم ويؤاجرون رجالا غيرهم من المدينة ليساعدوهم بل قال انه يلزم ان يكون كل الخدم نساء وخصص حجرتين للمرطبات والاستراحة وخصص خدمها من الفتيات الجميلات واعد لهن لباس راعيات الاعصر الماضية الا ان هذه الفكرة كانت صعبة التنفيذ لانه اراد الا يقل عدد الراعيات عن الثلاثين خمسة عشر لكل حجرة ولو انه اراد الجمال فقط لوجد فى بيسا ضعف هذا العدد ولكنه اشترط الجمال والامانة حفاظاً لمتاعه واوانيه الفضية والذهبية ويالالاسف ان هذا الشرط صعب الحصول على مطلوبه فقد تعب وكيله اشد التعب فى البحث واخيراً ضاقت مذاهبه واقبل على سيده قبل الحفلة بيومين واخبره انه أفرغ كل مافي جهده

فلم يحصل على أكثر من ثلاث وعشرين فتاة فصاح المركيز غاضبا عند سماعه ذلك

ـ ما هذا الهذيان اني امرتك باستحضار ثلاثين فتاة ولا بد لي منهن فكيف تحضر أيها الاحمق ثلاثا وعشرين لتلبس ملابس الثلاثين .. ألا ترى ان كل شيء قد اعددلهن من لباس وكفوف وادوات الى آخر ما يلزم . فتيقن انك اما ان تحضر هذا العدد او تفقد منصبك .

وعند ذكره هذه العبارة الاخيرة صاح باعلى صوته بحال مرعبة واشار الى الباب

فلم الوكيل طباع سيده جيدا فلم يقدر على معارضته وتناول لوقته قبعته وعصاه وخرج مسرعا ورأى من العبث ان يبحث وسط الطبقات الفقيرة لانه جمع منها عددا لا يمكنه ان يجمع أكثر منه لذلك وجد آخر حيلة ان يطوف على أصحابه الذين لهم فتيات يشتغلن فى أمور أخرى ويغريهم او يخدعهم حتى يحصل منهم على السبعة الباقية .. فامضى طول يومه في بحث واخذ مراعيد وصبر ولم يأت الغروب حتى امكنه الحصول على ستة فتيات ففرح فرحا شديدا لانتقاله بهذه السرعة من ثلاثة وعشرين الى ستة وعشرين ولكنه تحير أين يجد الراعية الثلاثين ؟ سأل نفسه هذا السؤال الهام وهو سائر فى شارع حقير بقرب الكامبوسانتو اثناء عودته الى سراى المركيز وكان يمشي على وجهه بمنديله لشدة تعبه فابصر بفتاة واقفة امام باب احد البيوت تنتظر قدوم انسان آخر ليدخلا معا فقال فى نفسه والامل ملء فؤاده

ـ رباه هذه اجمل فتاة رأيتها فلو أمكن ان تكون هي الراعية الثلاثين

لعدت الى الدار وتناولت العشاء بقلب مستريح وعلى كل حال فلا سألهافان السؤال لا يضر بشيء بل ربما افاد . ثم رأى الفتاة تحاول الدخول عند ما قرب منها فقال

ـ قفي ياعزيزتي ولاتجزعي مني فانا وكيل المركيز ميلاني وكل من في بيسا يعرف انني شفيق لاضرر مني ولدي شيء اعرضه عليك . . لاتندهشي فاني انما اسألك ان كنت ترغبين في اكتساب شيء من النقود بطريق العفة والشرف . لاشك . . لانه يظهر لي أنك فقيرة

فاجابت الفتاة بحزن

ـ انني فقيرة جداً وفي حاجة لعمل شريف احصل منه على قوتي .

ـ اذا فسنوافق بعضنا فعندي لك أجمل شغل واكبر أجر وقبل ان نقول شيئا آخر في هذا الموضوع دعني اعرف من انت وها أنت عرفت من انا .

ـ انا لست الا فتاة فقيرة اسمى نانينا

ـ او أنت من بيسا ؟

ـ نعم يا سيدي ولكني تغيبت عنها سنة امضيتها في فلورنسا مشتغلة بالخياطة

ـ وهل تعيشين وحيدة

ـ كلا يامولاي فلي أخت اصغر مني كنت انتظرها اثناء قدومك

ـ الم تخدمي عند احد ؟

ـ امضيت ياسيدي الثماني شهور الماضية في تمريض سيدة عليلة

بفلورنسا وقد سمح لاختي بمساعدتي وهي فتاة دخلت في السنة الحادية عشرة من عمرها

ـ ولم تركت هذه الخدمة ؟

ـ لان السيدة واسرتها عزمت على الذهاب الى روما وارادت ان تأخذني معها الا انها لم ترض ان تأخذ اختي فلم اقبل مرافقتها لاني لم افارق اختي لحظة من قبل ولن افارقها بعد .

ـ واظنك عدت الى بيسا وليس لك عمل تشتغلين به ؟

ـ نعم يا سيدي فلم نحضر الا مساء امس

ـ اذا فانت سعيدة الحظ لحضورك في مثل هذا الوقت ومقابلتي فهل تعرفين هنا من يشهد بحسن اخلاقك ؟

ـ لا أعرف الا ربة هذه الدار

ـ ومن هي يا بنية ؟

ـ مارتا انجريزاني يا سيدي .

ـ ماذا الممرضة الشهيرة مارتا : انك لن تجدين ضامنا احسن منها فاني اذكر انها اشتغلت مرة في سراي ميلاني بينما كان المركيز في مرضه الاخير ولكني لم اعرف ان لها بيتا للايجار .

ـ انها وابنتها علكان هذي الدار من زمن بعيد لا اذكره وقد سكنت واختي عندهما ايام صغرنا واود ان اسكن عندهما ثانيا الا ان القاعة التي كنا نسكنها بالدور الاعلى سكنها غيرنا وليس هناك الا قاعة بالدور الاسفل اجرها فوق طاقتنا

ـ كم قيمة اجرها ؟

فذكرت نانينا اجر القاعة الاسبوعي وهي خائفة مرتعشة فضحك وقال

ما قولك في مبلغ يوازي قيمة هذا الاجر سنة كاملة ؟

فنظرت الفتاة اليه نظرة الاندهاش صامتة لم تنبس ببنت شفة فاستمر في حديثه

ـ هي اني اعطيتك هذا المبلغ وطلبت اليك في مقابله شيئا بسيطا وهو ان تلبسي رداء جميلا وتقفي في حجرة بهية بسراي المركيز ميلاني ليلة فرحه لتقومي بخدمة الزائرين بكل سهولة وراحة فماذا تقولين ؟

فلم تجب بشيء بل خطت الى الوراء بضع خطوات وقد زاد رعبها عما قبل فقال الرجل بكبرياء

ـ اظنك سمعت بحفلة النقاب فليس في بيسا من غني او فقير كبير او صغير الا وسمع بها ؟

فلم تجب ايضا ولو سألتها الحقيقة لاجابت ان حديث الحفلة الذي شغل الناس اجمع لم يهمها لان آخر اخبار اثرت عليها هي موت الكونتسه دي اسكولي وسفر فابيو لتبديل الهواء ولقد كانت جاهلة بعودته جهلها بكل شيء عن الحفلة الا ان شعورا باطنيا لا تعرف كيف تعبر عنه اجبرها على العودة الى بيسا والسكن بدارها القديمة حاملة لشجونها وهمومها ولم تستطع الا اطاعة ذلك الشعور الذي شوقها الى رؤية مكان امضت فيه اسعد انفس ساعة في حياتها

لم تبح الفتاة للوكيل بشيء مما تشعر به بل بقيت صامتة اثناء حديثه لها واستمالتها لقبول طلبه وقد وصف لها نظام الحفلة وفخامة حجرة المرطبات

وملبس الراعيات وأخيراً قالت انها تتأثر كثيراً اذا هي لبست لباساً نفيسا ليس لها وانها تخشى الا تقوم بخدمة الضيوف كما يجب ولكنه لم يسمع معارضتها ودعى مارتا انجريزاني ليستفهم منها عن خلق نانينا

وبينما الثلاثة في الحديث اذ حضرت لابيوندیلا ولم يكن الكلب معها كعادتها فلما رأتها المرضعة انتهزت الفرصة وقدمتها للوكيل قائلة

ـ هذه ياسيدي أخت نانينا وانها الفتاة ماهرة جداً تصنع حصر الموائد جيداً فان لزم لجناب المركيز شيء فلا تحرموها من المنفعة . .

ثم وجهت الخطاب للفتاة فقالت

ـ أين كلبك ياعزيزتي ؟

لقد ربض امام سوق الجزارين وما قدرت على قيادته واخشى ان يسرق شيئا فهو ينظر الى اللحم بعين الاشتياق .

فقال الوكيل مداعبا لابيوندیلا بيده على خدها

ـ انها لفتاة جميلة ويلزمنا ان نأخذها الى الحفلة فسأنظر اذا كان لدى جنابه مركز لها عدت واخبرتها بذلك . اما انت يانانينا فلتعدي نفسك الراعية الثلاثين واحضري غدا الى قاعة البواب بالسراي لتجربي رداءك وارجوك الا تنظري الى هذه النظرات التي تشف عن عدم ارتياحك ولا تقولي انك غير قادرة على القيام بمهمتك فالمطلوب منك ان تكوني جميلة بهية واظنك رأيت مرارا عند نظرك في المرآة انك قادرة ان تكوني كذلك . ولتذكري أجر القاعة ولا تقفي في سبيل منفعتك واختك واني اعدك ان حضرت الحفلة ان اعطيك صندوقا من الحلوى لاجلها فانها لاشك تحبها فصاحت لابيوندیلا مصفقة

ـ اذهبي يا نانينا الي المرقص بلا تردد . . فقالت الممرضة

ـ انها ستذهب بلا شك لانها تعد حمقاء ان هي ضيعت فرصة كهذه فتحيرت نانينا وترددت برهة ثم اخذت مارتا جانبا وسألتها

ـ ايمكن يوجد بسراي المركيز رهبان ؟

ـ ما هذا السؤال يا بنية ؟ أتوجد الرهبان في حفلات الرقص ؟ ان بعدهم عن حضور هذه الحفلات كبعد الاتراك عن دخول الكنائس يتعبدون . ولكن لنفرض المستحيل وهي ان هناك قسسا فماذا بعد ؟

ـ لا شيء . واصفر لون الفتاة عند مجاوبتها ثم عادت الى مكانها ـ فقد كان كل خوفها ان تقابل الاب روكو لانها لم تنس عدم ثقته بها وقد كسرت تلك الذكرى قلبها وكاد يغمى عليها ـ فقال الوكيل واضعا قبعته على رأسه

ـ لا تنسى الحضور غداً الى قاعة البواب وهناك تجدين ثوبك الجديد في انتظارك .

فحيته نانينا ولم تعارضه ثانيا لانها فكرت في ضمان أجر القاعة سنة كاملة تسكن فيها بين معارفها القدماء وقد أثرت عليها نصيحة الممرضة ورغبة أختها في الهدية الموعودة فلم تخالف . . ولما خلا الوكيل بنفسه قال ـ ما أحسن ان ثم كل شيء فانني أذهب الآن مسروراً مطمئنا وان لم يستشر فرنسيز عند رؤيته الراعية الثلاثين عن نسبتي الى الحق فان يكون جاحداً غشوماً .

دنا الوكيل من باب السراي فرأى العمال يشتغلون باقامة انواع

الزينة وكانت جمعية منهم مشتغلة بتثبيت الاعمدة في الارض فنظر اليهم فاستلفتت نظره سيدة واقفة وسطهم فأعجب بقوامها (وكان شديد الميل الى الجنس اللطيف) وجعل يتأمل فيها وبينما هو كذلك واذا بكلب عزير الشعر اقبل نحوها (وكان يتلمظ كأنه يأكل) وما رآها حتى نبحها بغلظ وتوحش فأقبل الوكيل اليها رافعا عصاه ليطارد الكلب فرآها قد انزعجت وسمعها تقول

ـ أأنت هنا أيها الوحش وهل يمكن أن تكون نانينا قد عادت الى بيسا ؟

فشجعته هذه العبارة على الاقدام لمحادثتها فقال

ـ ارجوك السماح يا سيدتي اذا حادثتك بدون سابق معرفة فاني سمعتك تذكرين اسم نانينا فهل تتفضلين وتخبرني ان كنت تقصدين فتاة شغالة جميلة تسكن بقرب الكامبو سانتو ؟ فأجابت وقد زاد اندهاشها

ـ نعم اقصدها وليس سواها .

ـ اظنه يسرك ايتها السيدة ان تعلمي انها عادت منذ قليل وان لها في الحياة مستقبلا حسنا ولقد عينتها لتقوم باحدى الخدمات في حفلة المركيز العظيمة واري انها لو تصرفت في امورها تصرفا حسنا تصادف كذلك مستقبلا زاهرا وحظا سعيدا ..

فانحنت السيدة ونظرت الى مخاطبها بكل التفات وقد ملأت الافكار رأسها ثم تركت مكانها فجأة ولم تنبس ببنت شفه فقال الوكيل في نفسه وهو داخل الى السراى انها لامرأة غريبة فلا سألن عنها الراعية الثلاثين غدا

﴿ الفصل الثاني ﴾

(اذا كنت في عمل شارعا) فلا تتركنه لأيدي الرياح
بل اعمل بجهدك ما تستطيع (ومهد اليه طريق النجاح)

غير موت معالينا نظام حياة أبيها وعمها تغييراً تاما فقد هجر الاول دار صناعته ولم يعد قادرا على النظر اليها فالتحق مع بعض المكتشفين كمساعد في اكتشاف تماثيل قديمة بمدينة نابولي وترك بيسا عاهدا حفظ متاعه لاخيه

اما الراهب فاعتنى بحفظ التماثيل وغطاها كلها بالقماش صيانة لها من الاتربة ولكنه اعتزل الذهاب الي دار الصناعة للاشتغال بتجارته كما كان فادهش كل عارفيه بعمله الا انه ادى وظيفته الدينيه كعادته وغاية الامر انه قلل من زيارة فقرائه وكان اغلب ذهابه الي سراى فابيو ليستفهم من البواب عن صحة الطفلة وكان الآخر يجيبه انها متمتعة بتمام الصحة تحت عناية أحسن مربيات يمكن الحصول عليهن ...

اما مراسلاته مع صاحبه بفلورنسا فقد انقطعت عدة أشهر وآخر خبر وصله منه ان نانينا مشتغلة بخدمة سيدة من اكبر سيدات المدينة فخفف ذلك همه وافرحه لبقية حب للفتاة بقلبه ولم يطلب من صاحبه الا أن يخبره باليوم الذى تترك الفتاة فيه مركزها .

ولما رأى أصحاب الراهب تغيير حاله نسبوا ذلك الي كبر سنه وانصرافه عن الامور الدنيوية الي الدينية . . اما أعداؤه (وحتى الاب ولو كانت له أعداء) فلم يسلموا بذلك وقالوا انه مخلوق مثلهم فلا تلزم الثقة التامة به لانه معرض للخطأ وخصوصا أن الانسان متى وجد

الناس أجمع ينظرون اليه نظر الطهارة والنقاوة وليس فيهم من ينتقده فعل ما يشاء من القبائح غير مبال ولا خائف ..

هذه أقوال تناقلها الناس عن أسباب تغيير حال الراهب ولكنه لم يفكر فيها وسار على نظامه وترتيبه الجديد كأنه بعيد عن التأثر بأقوال الناس وطوارىء الزمن .. وهكذا كانت حياته عند موت ابنة أخيه حتي عودة فابيو الى بيسا ..

كان الراهب أول من قابل فابيو عند عودته وهنأه بالسلامة ولكنه لم يثن زيارته ولم يعرف احد لذلك سببا غير قوله انه خاطب الشاب في موضوع لصالحه فابي قبوله وساء فهمه لعباراته واقد ادهش هذا الحادث القوم ولولا انشغالهم بحديث حفلة الرقص لاستمر اندهاشهم زمانا طويلا وقد منعهم ذلك ايضا عن ملاحظة عودة الراهب الي نظامه القديم واشتغاله بالنقش والتصوير فهو بعد مقابلته لفابيو وحدوث سوء التفاهم بينهما عاد الى دار صناعة أخيه ففتح بابها بعد ان طال غلقه .. ولما سمع عمال لوكا بذلك اسرعوا الى الاب روكو وعرضوا عليه رغبتهم في العودة الى عملهم فقال انه في غنى عنهم .. وكان الزائرون اذا جاءوا ولم يجدوا شيئا جديدا عادوا من حيث أتوا وهكذا مرت الايام حتي جاء اليوم الذى فيه تركت نانينا مركزها وعادت الي بيسا فوصلت الراهب الاخبار من مراسله ولكنه لم يهتم بالسؤال عنها ولم يظهر رغبته في مقابلتها او مراسلتها ولا ندرى اذا كان ذلك ناشئا عن شدة انهماكه في الاشتغال بالتماثيل ام عن حيله الخفية وثباته الغريب فقد كان يمضي صباحه في دار الصناعة ومساءه في اشغاله الدينية واستمر على ذلك الى اول يوم قبل حفلة

ميلاني ففي صباح ذلك اليوم اغلق أبواب دار الصناعة كما كانت وذهب الى مسكنه ولم يغادره ..

وقد زاره بعض اصحابه فاجيبوا انه منحرف الصحة غير قادر على مقابلتهم ولو انهم دخلوا الي مكتبه ونظروه لرأوا ان ذلك لم يكن كل السبب فقد كان اصفر الوجه جازعا على غير حاله الاعتيادية .. ولم يأت المساء حتي تزايد اضطرابه وقلقه ولقد دخلت عليه خادمته العجوز والحت عليه في تناول شيء من المرطبات ولكنه أجابها بشدة وغضب لاول مرة منذ عاشرته فأدهشها عمله وزادت دهشتها عند ما ارسلها برسالة الى سراى اسكولي ولم يلبث ان جاء خادم فابيو بردها فقالت في نفسها اثناء صعودها السلم

ـ لقد مضى زمن طويل لم يتراسل الاثنان في أثنائه فهل هما يأتري سيعودان الى مودتهما الاولى ؟

ولما تناول الراهب رد رسالته وقرأها قال

اني اشعر الليلة بسرور وتحسين في صحتي ويمكنني ان اترك الدار فاذا سأل عني احد خبريه انني قصدت سراى اسكولي ..

قال ذلك وقصد الباب فخرج ولما وصل السراى وجد فابيو يتمشى في احدى قاعات الاستقبال الكبرى والقلق باد على محياه ورأى لباس رقص اسود مطروحا على احدى الموائد فلما نظره الفتى قال فجأة .

كنت على وشك ان ارسل لك ساعة وصلتني رسالتك التي فيها ذكرتني بوداد نا القديم ولقد سررت بهذه الذكرى واسفت على ما بدر مني لك من خشن الكلام عند آخر مقابلة لنا يوم فاتحتني في مسألة الزواج ثانيا فانت اول من فكر في ذلك وقد كنت اذ ذاك متغيظا فبدر مني

مابدر عن غير قصد والآن ارجوك العفو ولا أعرض عليك امرا آخر وهو انه منذ شاع عزمي على اعادة السرور والانبساط والذهاب الى حفلة الفد وردتني جملة رسائل وقعة تنهاني عن الذهاب والاستمال على معرفة كاتبها واني لا استشيرك في اكتشاف أولاء الاوغاد ولدي سؤال هام اسألكه بعد ان تقرأ احدى الرسائل التي يدلك مافيها على مافي بقيتها فكلها ترمي لغرض واحد..

ثم ناوله احدى الرسائل ناظرا اليه نظرة الحقق وكان لون الراهب لايزال مصفرا فأخذ الرسالة وجلس قرب احد المصابيح وقرأ فيها ما يأتي :

الكونت فابيو .

اصبح حديث العامة في بيسانه من المحتمل لعشر سنين ومو ت امرأتك وتركها لك طفلا يتيما ان تتزوج بامرأة غيرها وقد اكسب قبولك دعوة المركيز ميلاني ذلك الحديث شيئا من الصدق . والزوج الصادق في محبة زوجه المقيم على وفائه بعد موتها لايجتمع في محفل كهذا تجتمع فيه كل كاعب حسناء . فلتتنح عن عزمك وتبق بمنزلك فاني اعرفك وقد عرفت امرأتك من قبل والآن انصحك بعدم الذهاب نصيحة ان اهملتها ندمت عليها لآخر لحظة من حياتك ولدي لما اقول اسباب قوية هائلة فظيعة قتالة لا يمكنني ان ابوح بها . فان شئت ان تريح امرأتك في قبرها وتتوقي خطرا فظيعا يتهددك فلا تذهب الي حفلة المرقص ..

وبعد ان قرأها ردها الى الفتى فقال بغضب

ـ اني اسألك واسأل اي انسان غيرك اليست هذه العبارات وقحة بذيئة يحاول كاتبها ان يسلط على الجزع بذكر امرأتي الفقيدة المسكينه

ويدعي على ادعاء باطلا انني عازم على الزواج مرة ثانية مع انني لم افكر في مثل هذه الافكار قط .. وما معنى قوله ـ ان شئت ان ترى امرأتك في قبرها ؟ الا ترشدني ؟ اما لديك حيلة تعرف بها ذلك الكاتب السافل ؟ ما لك لا تجيب ؟ بالله الا خبرتني ؟

فاسند الراهب رأسه على يده وحول وجهه عن النور كأنه جهر عينيه وقال بهدو زائد

ـ لا يمكنني ان اجيبك قبل التفكير فالغاز هذه الرسالة لا تحل في لحظة واحدة لان فيها ماهو كاف للاشكال على اى انسان وادهاشه ..

ـ اي مشكل او مدهش فيها ؟

ـ من الصعب على وخصوصاً في مثل هذه اللحظة ان اغوص في التفصيلات

ـ انك تتكلم بلهجة مغمضة غريبة فهل لم يكن لديك فكر تبديه ام لم يكن عندك نصيحة ترشدني بها ؟

ـ اني أنصحك الا تذهب الى المرقص .

ـ ولم تنصحني بذلك ؟

ـ اخشى ان اظهرت لك اسبابي ان اغضبك بلادا ع .

ـ انى أيها الاب لم أرتح لحديثك ومعاملتك فانك تتكلم بابهام وقد جلست مخفيا عني وجهك في الظلام

فهب الراهب من مكانه وتوجه نحو النور وقال بهدو وثبات ناظراً الى الفتى بدقة أثناء حديثه

ـ اني اوصيك ان تملك احساسك وتعاملني باحترام مادي . فاجاب

الآخر مهدئا نفسه

ـ اننا لا نطيل هذا الاجتماع فلدي سؤال واحد اسألكه

فهز روكو رأسه علامة انه مستعد للاصغاء ووقف في نور المصباح مصفر اللون ثابتا رزينا وسار فابيو في حديثه

ـ من المحتمل ان هذه الرسائل تشير الى بعض كلمات قالتها زوجتي الفقيدة وغفلنا عنها ولذا اسألك بصفتك مهذبها واحد أقربائها الذين حضروا اعترافها هل هي أبدت ساعة موتها رغبتها في عدم تعويضي لها وزواجي بغيرها ؟

ـ ألم تفصح لك قط عن رغبتها في ذلك ؟

ـ كلا ولكن لم تتخلص من مجاوبة سؤالي بان تسألني ؟

ـ لانه يستحيل علي ان اجاوب على سؤالك

ـ ولم ذلك ؟

ـ لانه يستحيل علي ان اجاوب بما يشير الى اعتراف سمعته من شخص ساعة موته سواء كان ذلك سلبا او ايجابا

فقال الفتى وقد ابتعد عن الراهب غاضبا

ـ كفانا حديثا فقد دعوتك لاسترشدك في حل هذه الالغاز فزدتها على اشكالا وزدت في ظلام طريق حسبتك مصباحه ولا ادري قصدك اواسبابك لذلك غير اني اقول لك كما اقول لكاتبي هذه الرسائل الاشرار لو كانوا هنا انه لا وعيد ولا ايهام ولا مؤامرة تمنعني من الذهاب الى المرقص غدا فاني اصغي للاغراء والارشاد ولكنني ازدري بالتهديد والوعيد وهاك ملابس الرقص مطروحة امامك وليس على الارض قوة

تمنحني من لبسها مساء غد .

فقال الراهب متبسما ومشددا كلمة الارض

ـ اليس على الارض من قوة تمنعك . ؟ انك ايها الكونت لا تزال خرافيا تعتقد في الاوهام فهل تحسب ان لقوى الآخرة تداخلا مع الاشخاص الذين يذهبون الى المرقص ؟

فاجفل فابيو وابتعد عن الطاولة ناظرا الى وجه الراهب عمدا فقال الآخر وهو لا يزال يبتسم

ـ اقترحت من برهة الانطيل الحديث واظنك قد اصبت في ذلك فلو تفارقنا حالا تفارقنا كما نحن صاحبين ولقد نصحتك بعدم الذهاب الى المرقص فان تبعت نصيحتي فخيرا والا فاني فعلت ما علي وعليك السلام .

فاراد فابيو ان يجاوبه بجواب منغضب ولكنه لم يكد يفعل حتى فتح الباب وافعل واختفى الراهب

الفصل الثالث

(وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يبيتان في حال تسر الاعاديا
ويبلغ كل ما يرجي وطالما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا)

جاء المساء التالي ودنا وقت الذهاب الى المرقص وفابيو لم يترك سرايه لتردد قائم في نفسه لا يعرف له سببا مع ان عزمه الاول على الذهاب لم يتغير ولم يشبه ادنى شائب غير انه ترك رداءه مطويا كما هو ولم يلمسه ووجد من نفسه دافعا قويا يجذبه الى البقاء بين حيطان حجرته وكأن تلك

السراي الكبيرة قد تزينت في تلك الليلة بحسن فقدته منذ موت قرينته ..
ثم ترك حجرته وذهب الى قاعة النوم حيث ترقد طفلتها في مهدها فجعل
ينظر اليها ويفكر في حوادثه الماضية برهة عاد بعدها الى حيث كان ولكنه
لم يلبث ان مل وحدته فذهب الى قاعة المطالعة وأشعل المصباح وفتح أحد
ادراج مكتبه واخرج منه خطاب نانينا ولم تك تلك أول مرة تخلص
فيها من ملله الفجائي بقراءة خطاب الفتاة الفقيرة . فتح الخطاب وقرأه بتأن
ثم تركه منشورا امامه وقال في نفسه بحزن وأسف .. انني حاصل على
كل ما يسعى وراءه الانسان من شباب وغنى وألقاب ومع ذلك فلا أجد
إذا فكرت فيمن يحبني حباً صادقاً طاهراً غير انسان واحد هو تلك
الفتاة الفقيرة الامينة البريئة التي نمقت هذه الاسطر!

تراكمت على مخيلته ذكرى الفتاة وأول مرة قابلها فيها وأول زيارة لها
في دارها الحقيرة ومازالت تنمو هذه الافكار حتى تملكته وجعل يخط
بقلم في يده بعض أشكال غير منتظمة على قرطاس امامه وهو لا يدري
فكان تارة يرسم خطوطا مستقيمة وأخرى صورة تماثيل وهكذا سرح
في وديان الخيال حتى خمد نور المصباح فجأة فتنبه لنفسه ونظر في ساعته
فاذا الليل اوشك أن ينتصف فوجد من الضروري أن يترك السراي في
الحال ولم تمض بضع دقائق حتى ارتدى بملابس الرقص وتلثم بالنقاب
وخرج قاصدا سراي ميلاني

انتهي الجزء الاول من الرقص قبل وصول فابيو وأخذ المدعوون
يتجهزون لرقص آخر يشترك فيه جميع الحاضرين فدخلوا الي قاعات
الاستراحة وكان المركيز ميلاني قد قسم حجرتي المرطبات الى قسمين

سمي الاول بالقاعة الهادئة وخصها بالحلويات والمرطبات والمشروبات الروحية الخفيفة وسمي الثانية بالقاعة الجامعة وخصها بالمشروبات القوية والمأكولات وبقيـة ما يكفل راحة المدعوين وقسم الثلاثين راعية بين الحجرتين مناصفة ولكنه لما رأى اشتداد الزحام واقبال الضيوف على الحجرة الجامعة أمر بان يضم اليها عشر راعيات من الحجرة الهادئة وكان نصيب نانينا البقاء ضمن الخمسة الباقية لان الوكيل علم أنها اذا ضمت الى الزحام لا تقوم بعملها لشدة حياتها وانها تكون عرضة لنظر كل من يمر بها فيكون الموقف حرجا عليها ..

وصل فابير الى السراى ساعة اشتداد الزحام بالقاعة الجامعة فقد تزاحم فيها المدعوون وجعلوا ينظرون الى الراعيات ويعجبون بملابسهن ويغازلونهن باللاتينية بعبارات خشنة مستوحشة .. ولم يكد الفتى ينتهى من رد تحيات أصحابه الذين يهنئونه من كل ناحية بسلامة العودة حتى بلله العرق لاشتداد الحرارة وعدم تعوده على حضور المجتمعات من زمن بعيد فقد امضى عدة شهور فى هدو وسكون فسار داخل قاعات الرقص وقد هجرها اغلب من فيها حتى وصل فى النهاية الي قاعة هادئة ساكنة وافق اسمها الجديد حالها وهى الحجرة الهادئة

دخل تلك الحجرة وبعد ان نظر الى زبها الغريب بلا اعتناء جلس على ديوان بقرب الباب ولم يكد يستقر به مجلسه حتي شعر بحرارة تقابه فكشفه وما كاد يفعل حتى سمع صيحة مختنقة خرجت من بين الخمسة الراعيات الواقفات وراء مائدة المرطبات فى نهاية القاعة فقام لينظر ما الخبر فوجد نفسه واقفا امام نانينا وجها لوجه فلم يصدق ما رأى واندهش

وحق له

ولقد اثرت تلك المفاجأة على الفتاة تأثيرا شديدا فاصفر لونها ولم تتمالك احساسها وكادت تسقط على الارض عند ما قصدها الا أنها توكأت على المائدة رهيأ الله لها الخادمة الواقفة بقربها فمدت ذراعها لمساعدتها على الوقوف ولما قرب منها مالت رأسها على صدرها وقالت بهدو وضعف

ـ لم أكن أحسب أنك فى بيسا ولم افكر قط انك تيمم هذه الحفلة ولكن آه انى صادقة فيما سطرت بخطابى وان كانت الظواهر تنبيء بخلاف ذلك .

ـ اود ان احادثك بخصوص خطابك واخبرك كيف تحفظت عليه وكم مرة تلوت تلاوته

فحولت وجهها وحاولت ان تمنع الدموع التي كانت تندفع الى مآقيها ثم قالت

ـ اننا لم نكن لنتقابل قط

وقبل ان يجيبها قالت الخادمة بفروغ صبر

ـ بربك الا ما فضضت حديثك معها فى هذا المكان فانك ان استمررت عليه وجاء الوكيل او احد رؤساء الخدم وشاهد كما تكون سببا لايقاعها فى متاعب مؤلمة ولتصبر الى الغد حيث تقابلها فى مكان أليق وآمن

فعلم صدق ماقالته وتناول رقعة من الورق وكتب عليها ما يأتى ـ «يجب على ان اخبرك كيف اعزك واحترم خطابك فلتحضرى غدا عند

الساعة العاشرة الى جنائن اسكولى وتدخلى من الباب الخلفي الصغير ولتثقى بصدق محبتى ووداد ي كما اثق بك . ،، ثم اخرج مفتاحا صغيرا من سلسلة ساعته ولفه في الرقعة ووضعها في يدها وقد قبضت اصابعه رغما عنه على اصابعها وكان على وشك ان يفاتحها الحديث عند مارأى يدالخادمة التي رفعتها لتشير اليه بالابتعاد قد ارتخت الا انه ابصر بها وقد اصفر لونها ونظرت امامها نظر المروع فنظر واذا بامرأة متخفية واقفة وحدها وسط الحجرة عليها نقاب اصفر مسترسل على صدرها ورداؤها اصفر اكمامه واسعة تتهادى على جانبيه يهزها النسيم الخفيف اذا سرى وكانت عيناها السوداويتان تبرقان من خرق النقاب وكلما تنفست اهتز امام فمها وقد وقفت كذلك لاتتكلم ولاتشير فلما نظرها فابيو التفت نظرها عليه ولم تحوله عنه .. فشعر برعشة شديدة لانه لاحظ ان لون الرداء والنقاب كلون الحرير الذى اختارته زوجه لفرش حجرتها الخصوصية بلاخلاف ..

ولما رآها الفتيات الراعيات اجتمعن الى بعضهن وراء المائدة وهمسن بحال تهيج :

ـ عادت لنا ذات النقاب الاصفر

وقالت احداهن ـ سلنها ان تتكلم . وقالت اخرى ـ اعرضن عليها شيأ مما لديكن . وقالت ثالثة

ـ ليسألها هذا السيد . . خاطبها ياسيدى من فضلك فانها تتجول في السراي بهذا اللباس الاصفر المخيف كانها خيال من الجن

فنظر فابيو الى الفتاة التى تخاطبه فرأى ناينا لاتزال محولة وجهها وقد غطت عينيها بمنديلها وهى ترتعد لشدة تأثير المقابلة الفجائية عليها وقد

منعها ذلك عن ملاحظة قدوم ذات النقاب الاصفر ثم همست فتاتان أخريان

ـ بالله ياسيدى الا ما خاطبتها ؟

فعاد الفتى ثانيا نحو المائدة وعيون ذات النقاب ترقبه ثم هز رأسه للفتاتين ونظر الى ثانيتا نظرة التحية والوداع وترك موضعه قاصدا المرأة وكان كلما يخطو خطوة تتبعه بنظرها حتى دنا من نهاية المائدة وقرب منها وهى لا تتحرك وقد شخصت عيناها اليه برهة وكأنهما جمدتا فلم تتحركا أيضا فوقف وعزم على الكلام الا ان الرعشة اخذته ثانيا وشعر كأن صاعقة قد انقضت عليه فلم يسمع صياح الفتيات ولا صدح الموسيقى ولا المدعوين المهللين فرحا فترك المكان منتفضا وخرج

ثم سمع صوت الموسيقى يلحق بأكبر جوقة في المرقص وبينما هو لمثر في احدى القاعات الصغري اعارضه في الطريق صديق قديم هب من مكانه وكان يلعب الورق ـ ورفع يديه يحييه وقال بانشراح وسرور

ـ مرحبا بك يا كونت فابيو ولله الحمد على عودتك سالما

ولكنه لم يلبث ان قاطع الحديث على نفسه وقال

ـ وقيت الشر وعوفيت مالك اصفر اللون بارد اليد ؟

ـ لاشيء الا انى ازعجت بمرأى امرأة مرتدية بلباس غريب احدقت بي نظراتها ولا اعرف لجزعي سببا

ـ اظنك تعني ذات النقاب الاصفر ؟

ـ اعنيها فهل رأيتها ؟

ـ لقد رآها كل من في المكان ولم يقدر احد على كشف نقابها او جعلها تنطق بكلمة واحدة ومضيفنا لا يعرف من هي ومضيفتنا قد ارتاعت

لرؤيتها ارتياعا شديدا اما انا فارى انها قدلعبت معنا جزءا عظيما من الغازها وتخفيها ولو لم يكن اسمى اندوياد دى اديبنو وكان المركيز ميلاني لقلت لها ـ « اننا ايتها السيدة فى هذا المكان لنضحك ونسلى انفسنا فاتفضلى علينا بفتح شفتيك والظهور في دور آخر اجمل من هذا »

وبينما هما في الحديث اذ جلسا بجانب احدى طاولات اللعب وظهرهما نحو الباب فشعر فابيو فجأة بارتعاش واستيقظ لصوت تنفس ضئيل وراءه فنظر فى الحال واذا بذات النقاب واقفة بينهما تنظر اليهما فهب من مكانه وحذا صديقه حذوه فلم تتحول نظراتها عن الاحداق به فجمد دمه وارتعدت فرائصه فقال دى اديبنو باستهزاء خالطه الوقار

ـ اتعرفين ايتها السيدة الصفراء صاحبي ؟

فلم تجب ولم تتحرك اعينها القتالة عن وجه فابيو فاعاد صاحبها الحديث

ـ اعنى ايتها السيدة الصفراء الى الموسيقى ولتتفضلى بالرقص معى اذا شئت

فتحولت نظراتها وتركت المكان متباطئة فى حركتها فقال

ـ يظهر لي ياعزيزى ان هذه الامرأة قدائرت عليك كثيرا فزاد اصفرار لونك عما قبل فلتصحبنى الى قاعة المشروب حتى نتناول شيأ من الخمر فانك فى حاجة شديدة اليه .

فذهبا توا الى قاعة المرطبات الكبرى وكان كل المدعوين قدبدأوا فى الرقص ولم يبق فى المكان سواهما وكان بالحجرة مرآة كبيرة جميلة الشكل فلما دخل رأى دى أريبنو صديقا له واقفا ينظر فيها وهو يروح على وجهه بنقابة بلا اعتناء فتبادلا عبارات التحية والسلام وقال دى اريبنو

ـ انك ايها العزيز خير من يرشدنا الى أجود زجاجة خمر بالسراى ولا تقدم لك ياكونت فابيو صديق العزيز الفارس فينيلو وقد سبق هذا التعارف رابطتك المتينة مع عائلته .. واما أنت يافينيلو فاعلم أن الكونت فى حال انزعاج بسيط وقد وصفت له الدواء وهو تناول شيء من الخمر فعليك العلاج وانى لأرى هناك عن جانبك صفا كاملا من الزجاجات ..

ثم أشار الى احدى الراعيات وقال ـ لتحضرى ايتها الراعية الجميلة ذات العينين السوداويتين ثلاث كاسات

احضرت الكاسات واختار الفارس زجاجة مخصوصة ملأها منها وقصد الثلاثة طاولة المرآة ليجلسوا كعائدة وهنا بالطبع واجهوا المرآة جميعا فقال دى اريبنو

ـ لنشرب اجود الخمور فى نخب الناموس نيبار والكونت فابيو وسيدات بيسا

فرفع فابيو الكأس فى يده وبينما هو على وشك رشفه اذ نظر فى المرآة خيال ذات النقاب الاصفر شاخصة اليه وقد احنت رأسها فارتعد لثالث مرة ووضع الكأس كما هو فقال دى اريبنو

ـ ما الخبر ؟ واستفهم الفارس

ـ الا تحب أيها الكونت هذا النوع المخصوص من الشراب ؟ فهمس فابيو

ـ النقاب الاصفر . النقاب الاصفر

فالتفت الجميع نحو الباب فلم يجدوها فقد اسرعت بالخروج فقال الفارس أيعرف احد من هى صاحبة هذا النقاب ولم تتجول كذلك من

من حجرة الى اخرى كاللص او الجاسوس ، حتى عجب الكل لها ؟ وأنى لا ظن أن فى الامر سرا غريبا

فقال دي اربينو

ـ سل الكونت يخبرك انها بحالها هذه المفزعة كانت سببا في انزعاجه منذ برهة وها هى الآن منتشة من شرب الخمر .

فقال فابيو وقد نظر حوله بعصبية

ـ لا أقدر أن أذكرها ولكن هذه ثالث حجرة تبعتنى فيها وثالث مرة رأيتها تحدق بنظرها الى وحدى واظن ان حالى العصبية لا تساعدنى على حضور حفلات النقاب فنظر هذه المرأة يزعجنى ويرعشني فمن عساها تكون ؟

فقال فينيلو

لو تبعتنا مرة رابعة سأشدد عليها فى كشف نقابها فسأله صاحبه ـ ولنفرض انها أبت ؟

ـ اذاً ارفعه بيدى .

فقال فابيو ـ يستحيل أن يصنع مثل هذا مع امرأة وانى أرى الاوفق ان اتخلص منها فى الزحام وها انا ذاهب ولتبقيا حتى تنتهيا من الخمر وبعدها تقابلاني بقاعة الرقص الكبرى

ثم وضع نقابه على وجهه واسرع حتى التحق بالراقصين واجتهد ان يقف داعما فى اشد الاركان زحاما ولقد افادت حيلته ولم ير للنقاب الاصفر خيالا ثم تغير نظام الرقص وبدىء فى تنظيم رقص جديد يشترك فيه أغلب الموجودين وذلك ان يقف الرجال فى صف والنساء فى صف مقابل

بعضهم ويبلغ عدد كل صف نحو الاربعين يقفون امام وسط الساحة أو على طولها ويتمهل المتفرجون حتى يقفوا أزاء الحائط ولما كان فابيو من هؤلاء نظر نحو صف السيدات وأراد التحول من مكانه فرأي في نهاية الصفين ما بين الرجال والنساء .. ذات النقاب الاصفر بعينيها البارقتين فغير مكانه وذهب نحو صف آخر من الراقصين نظم على زاوية قائمة للصف الاول ولكنه وجدها أيضا في نهايته تنظر اليه فوقف في وسط الحجرة فلزمت مكانه الاول قرب الحائط وهكذا جعلت تتبعه من صف الي صف رغماً عن اجتهاده في الاختفاء فأخذ غضبه يتزايد وتضايق من تتبعها له فعزم على العمل بنصيحة فينيلو بأن يجعلها ترفع النقاب ورغم أنها فقصد قاعة الغذاء التي ترك صاحبيه بها فلم يجدهما فظن انهما ذهبا الى ساحة الرقص ليبحثا عنه ووجدهما قد تركا كمية كبيرة من الخمر فملأ الكاس وشربه ويده ترتجف ثم ملأ ثانيا وثالثا وشربها على عجل ليستمد المقاومة عزيمته بثبات وقد انتهز فرصة غيابها في ذلك الوقت الا انه كان ينتظر من برهة الى اخرى أن يرى خيالها في المرآة ولكنها لم تظهر مع انه رآها تتبعه عند خروجه من ساحة الرقص

فظن انها لابد ان تكون في انتظاره باحدى القاعات الصغرى فكشف نقابه ومر داخل جملة منها فلم يرها وأخيرا مر بباب قاعة المرطبات البسيطة حيث تقابل مع ثانينا فرأته الخادمة التي حادثته في أول الامر فقالت وقد حسبته يقصد الدخول ولم تدر ما أصابه

ـ لا تدخل ثانيا لتخاطب ثانينا فقد أخافها حديثك وتركها تصيح بعد ذهابك وقد تغير شكلها وجاء الوكيل فرآها في حال لا تصلح معها

للقيام بعملها فواساها وقال انها مصفرة اللون حمراء العينين لا تصلح لان تكون راعية فاذهب اذا شاءت الي منزلها وقد اعددنا لها رداء قديما وهاهي ستخرج متخفية لتتمكن من الوصول الى الدور الاسفل بدون ان يراها أحد فبالله لا تكلمها لئلا تصيح ثانيا أو يرا كما الوكيل فيظن -

وهنا وقفت عن الكلام وأشارت من على كتفه قائلة

- جاءت ذات النقاب الاصفر فلتبعدها الى ساحة الرقص حتى تتمكن نانينا من الخروج

فرجع فابيو وقصد ذات النقاب فلما رأته رجعت ولما رأت الخادمة ذلك أسرعت الى نانينا

عادت ذات النقاب ومرت من قاعة الى أخرى وأخيرا مرت داخل رواق منار بنور جميل ومزين بالزهور يوصل عن اليمين الى ساحة الرقص وعن اليسار الى سلم السراي فمشت جهة الشمال بضع خطوات ووقفت شاخصة الى وجه الفتى برهة قصيرة بعدها سمع وقع خطوات هادئة وراءه ورأى عينيها تتحركان فتتبع نظراتها فرأى نانينا سائرة وهي ملتفة في الرداء التنيم الذي اعدلها وما رأت المرأة حتى صاحت منزعجة

- رباه كيف يمكنني الخروج

فقال فابيو مشيراً نحو ساحة الرقص

- اذهبي من هذا الطريق فلا يلاحظك أحد وانت مرتدية بهذا الرداء لأن الجميع سيظنونه زياً جديداً للرقص

ثم مسك ذراعها ليؤكد لها حديثه ويمنع خوفها وقال

- لا تنسي غداً .. وفي هذه اللحظة شعر بيد قد لامسته فنظر

واذا بها يد ذات النقاب ابعدته عن ثانينا فارتعد رغم أنفه ولكنه تمالك نفسه حتى رسم للفتاة خطة السير فنظرت الى المرأة نظرة الدهشة والجزع ثم أطاعت واسرعت بالمسير

فوا جه فابيو عيني المرأة ومد يده نحوها بقوة وحماسة وقال

ـ نحن الآن وحيدان فلتخبرني من انت ولأي غرض تتبعيني والا هفمت نقابك بنفسي واكتشفت سرك

فأبعدت يده عنها وتقهقرت بضع خطوات ولم تنبس ببنت شفة فتبعها ولم يكن هناك وقت كاف للاهمال فقد سمع وقع اقدام تدنو من الرواق فقال في نفسه

ـ ان لم أفعل الآن فلن افعل

ثم هم بخطف النقاب ولكن ساعده عاد فارتمى الى جانبه ورفعت هي يدها وكشفت نقابها والقت المصابيح انوارها على وجهها

فاذا به وجه امرأته الميتة

الفصل الرابع

(ربما دها حزن فيه راحة المهج)

(والذي يقدره قادر على الفرج)

بحث السنيور اندريادي اربينو عن صديقه لكونت فابيو في جميع القاعات ولكن عبثنا ولما عيل صبره ولم يبق لديه مكان سوى الرواق الموصل الى ساحة المرقص عزم على البحث فيه كيلا يبقى في نفسه شك وبينما هو سائر فيه اذ وجد فابيو ملقى على الارض في حال اغماء شديد

وليس بقربه أحد فلم يرض ان يمكر صفو الحاضرين فذهب الى قاعة الاستراحة فوجد بها أحد خدم المركيز يساعد الفارس فينيلو على لبس ردائه (فقد كان عازما على الخروج)

تعاون دي اربينو وفينيلو على حمل فابيو وأجلساه بجانب نافذة مفتوحة بقاعة الاستراحة وذهب الخادم فجاء بشيء من الماء المثلج وبهذا العلاج البسيط وتبديل الهواء تمكنوا من تحسين حاله قليلا بكل صعوبة وأمكنه ان يتكلم ولكن بنغمة متغيرة كليلة ومن رآه في تلك اللحظة وسمع حديثه لايظن انه المكونت فابيو ولقد قال له دي اربينو

— اني وجدتك بالرواق فهل تذكر ما سبب لك الاغماء وهل للحرارة دخل في ذلك ؟

فصمت فابيو برهة وجعل يستجمع افكاره متألما ثم نظر الى الفارس والخادم واشار الى الخادم بالخروج فخرج فسأله دي اربينو ثانيا

— أكانت الحرارة السبب ؟

فأجاب بنغمة ثابتة غريبة

— كلا انما نظرت وجه ذات النقاب الاصفر

— حسناً ؟

فرأيته وجه امرأتي الفقيدة

— امرأتك الفقيدة ! !

— نعم فقد تحرك النقاب فرأيته ولم يكن كما كان في نضارة شبابها ودولة جمالها ولا في أيام مرضها — ولكنه وجهها ببيتة ضمها القبر

— بالله يا كونت الا تبصرت وتجلدت وعلمت أين انت وصرفت

من فكرك هذه الذكرى المؤلمة

ـ دعني من هذه العبارات فلست قادراً على سماعها ولم يعد لي في الحياة الا هم واحد هو البحث عن حقيقة هذه الالغاز حتى آخر لحظة فهل تساعدني على ذلك لانى لا أرى من نفسي الكفاءة على القيام به وحدي ؟

وكانت نعمته لا تزال كما هي غريبة لم تتغير . فهم من رقدته التي كان عليها وهناك تبادل دي اربينو وفينيلو النظرات خلسة ثم قال بلطف

ـ انا نساعدك على كل شيء فلتثق بنا حتى آخر لحظة والآن قل ما تريد اولا .

ـ لا بد ان يكون الخيال قد مر داخل الحجرة التي كنت بها فلنهبط ونسأل الخدم عما اذا كانوا رأوا شيئاً

(هنا لاحظ الشابان ان فابيو في تعبيره قال « الخيال » ولم يقل هي » او « ذات النقاب »

فهبطوا واستفهموا من جميع الخدم فاجيبوا بان لم ير احد للنقاب الاصفر خيالا وأخيرا لم يبق سوى بواب السراي فسألوه فأجاب انه رأى سيدة مرتدية في رداء اصفر ومتخفية كذلك بنقاب اصفر تركت السراي من نحو نصف ساعة وركبت عربة أجرة فسأله دي اربينو

ـ اتذكر السائق اذا رأيته ثانيا ؟

ـ بلا شك فانه صديق لي قديم .

ـ وهل تعرف اين يسكن ؟

ـ نعم اعرف داره كما اعرف داري .

ـ اذاً فلك ما تشاء اذا جئت بمن يجلس مكانك وذهبت معنا لترشدنا

الى داره

ـ لم تمض بضع دقائق حتى سار الجميع يتبعون اليوانب وبينما هم في الطريق اذ قال

ـ الاوفق ان نذهب الى الاسطبلات اولا لأن هذا الوقت لا يكفي صديقي لسوى توصيل السيدة والعودة لربط الخيل ولقد صدق الرجل فانهم ذهبوا الى الاسطبل وهناك رأوا العربة قد عادت فارغة والسائق يحل الخيل فقال دى اربينو واضعا في يده شيئا من النقود

ـ لقد كنت من برهة توصل سيدة في لباس اصفر من حفلة الرقص الى دارها

ـ نعم ياسيدي لقد أجرتني السيدة هذه الليلة لأوصلها الى المرقص واعود بها .

ـ ومن أين جئت بها ؟

ـ من مكان غريب جدا ياسيدى هو بوابة مدفن الكامبو سانتو اكان فابيو اثناء هذه المحادثة واقفا بين صديقيه كل يساعده بذراعه فلما سمع هذه العبارة الاخيرة مال الى الوراء وصاح صيحة هلع شديدة فسأل دى اربينو وقد نظر حوله بتألم ونطق سؤاله هامسا

ـ والى أين اخذتها الآن ؟

ـ الى الكامبو سانتو

هنا سحب فابيو ذراعيه من بين ذراعي صديقيه وسقط على ركبتيه

وأخي وجهه كأنه يتوقع رؤية مناظر هائلة مفزعة وشعر بان قواه بدأت تخونه فهو يدعو الله أن يلطف به ويخفف مصابه فقال فينيلو بلهف

ـ مالهذه الحال اصابته ؟

ـ كفى ياأخي فانك سمعته يقول انه لما رأى وجه ذات النقاب وجده وجه امرأته الفقيدة

ـ نعم وماذا بعد ؟

ـ لقد دفنت امرأته في الكامبوسانتو

﴿ الفصل الخامس ﴾

(يامن فؤادي عليه موقوف وكل همي اليه مصروف)

(ياحسرتي حسرة أموت بها ان لم يكن لي اليك معروف)

كانت نانيا اول من استيقظ في الصباح التالي ممن كان في سراي ميلاني فقد هرب النوم عن جفونها لما حل بها من الدهشة والانزعاج بحوادث الليلة الماضية ولم تكد تري اول خيط من الصباح حتى همت من فراشها وجلست بجانب نافذة مفتوحة تستنشق النسيم النقي وتفكر بكل هدوء فيما مر من ساعة أنهما كهما في خدمة المركيز

وكانت منذ عودتها قد فقدت احساسها لشدة جزعها من شكل النقاب الاصفر الغريب الذي تركته واقفا في الرواق مع فابيو فشتت افكارها وصارت في حال انذهال الا ان نور الصباح هدأ الامور وحول مخيلتها الى ذكرى أخرى فنشرت ورقة حبيبها وجعلت تقرأ مراراً كلماته المحبوبة التي كتبها على عجل وتفكر فيما ان كانت تخطىء ان هي حفظت

موعدها وذهبت للقائه وهل هناك من ضرر يترتب على هذه الزيارة ، ولكنها لم تلبث ان اثرت عليها جملته التي قال فيها — ولثقتي بصدق محبتي ووداده كما أثق بك — تأثيراً آخر فقالت لا ضرر هناك اذا اتيت في هذه المرة ، فطاب قلبها وزارت حبيبها ثم وجدت انه لابد من ذهابها ان لم يكن لشيء فأقله لتوصل المفتاح الى صاحبه ولم تأت لها هذه الفكرة حتى عقدت النية على الذهاب الى جنائن أسكولى عند الساعة العاشرة وبينما هي في أفكارها اذ قطعها عليها صوت طارق على باب الدار فهبت من مكانها ونظرت واذا بخادم في زيه الرسمي يتطلع الى أعلى متشوفا ليرى نتيجة طرقه فلم يكد يراها حتى سألها

— أهذا منزل الممرضة مارتا انجريزاني ؟

— نعم فهل لك من حاجة بها حتى ادعوها ؟

— ادعيها في الحال لتذهب الى سراي دي اسكولى لان سيدى الكونت فابيو ...

— فلم تصبر الفتاة لتسمع اكثر من ذلك بل أسرعت الى حجرة الممرضة وايقظتها بخشونة وهي تصيح بصوت متقطع

— اسرعي ، اسرعي فانه مريض وقد أرسل في طلبك

فسألت مارتا من هو الذي أرسل اليها فاجابتها فوعدت الا تضيع برهة من زمنها فأسرعت نانينا الى الخادم وما قربت منه حتى أزعجتها ملامحه فسألته غير مخفية شوقها ولهفها عن مرض سيده وكيف أصابه فجأة بعد انتهاء المرقص فاجاب الرجل وقد ادهشه قليلا خلق نانينا ولهجتها

— لا أدري غير ان اثنين من اصدقاء سيدى احضراه من نحو ساعتين

في حالة سيئة . ولما استدعى الطبيب لمعالجته امر بعرضة تلازمه فجئت في طلب مارتا . . . وكانت مارتا قد اخذت اهبتها واستعدت للذهاب مع الخادم فنظرت اليها نانينا نظرة ادركت مارتا منها فأخذتها معها بحجة انها تساعدها في تمريض الكونت فكان ذلك جل مايبتغي المريض أما الطبيب فلم يعارض في وجودها خصوصا وقد رأى ارتياح فايو من مواساتها له

ولم تمض أيام قلائل حتى تماثل جسمه للقوة من ضعفه والنشاط من خموله والنضرة من ذبوله ولكن الوهم كان يعبث بعقله عبثا شديدا فكان يؤخذ من هذيانه في اقواله وتقزعه في حركاته وصراخه في صيحاته ان صورة ذات النقاب الاصفر لم تفارق مخيلته ليلا ولا نهارا . . ولما رأى الطبيب تقدم صحته الجسمية صرف كل همه لتحسين قواه العقلية الا انه لم يجدبه اختلالا وغاية الامر انه كان كثيبا معتقدا صحة مارآه ليلة المرقص وهذا هو العقبة الوحيدة التي وقفت في سبيل شفاه

ولما ازدادت صحته تحسنا لم يكن له رغبة الا في شيء واحد وهو ان يرى نانينا بقربه في كل يوم فاكدوا له اجابة طلبه فلم يهتم بشيء آخر وقد رأى الطبيب ان يجعل الفتاة تقرأ له كل يوم نحو الساعة في احد كتبه المحبوبة فأجاب الى ذلك مرتاحا

وهكذا أخذوا يتحايلون عدة اساليب ليجلبوا له الفرح والانشراح ويجعلوه يتبسم وبينما نانينا تقرأ له ذات يوم اذ اخبرتها مارتا انه قد استولى عليه النوم فامسكت عن القراءة منتهدة وجلست ناظرة اليه وهو راقد بقربها ضئيلا اصفر كئيبا حتى في نومه وقد تغير شكله تغيرا كليا عما

كان عنده معرفتها به فكان ذلك المنظر وتفكيرها في حاله وتأثر صحته اشق وأصعب عليها من خدمته وتمريضه في دور الحمى الشديد تالى اصابته

وبينما هي في افكارها ونظرها الى حبيبها اذ فتح الباب ودخل الطبيب يتبعه اندريا دي اربينو وكان في شوق شديد ليرى تقدم صحة صديقه وشفائه لما شاطره اياه من الجهاد مع ذات النقاب الاصفر فنال الطبيب مقتربا من الفراش

ـ انه نائم بتنهد . . . ثم التفت الى دى اربينو وقال

ـ مازالت العقبة الشديدة قائمة في طريق شفائه فان هذا الوهم القتال الذي استولى على عقله وتصديقه صحة الوجه الذي رآه عند مارفع النقاب (بل الذى توهم انه رآه) مادام متسلطا عليه فهو يرقد كما تراه تتقدم كل يوم قواه الجسمية وتنقص العقلية

ـ اظنه فى حال سيئة لايمكن معها ان يقنعه الانسان بكذب مارأى؟

ـ انه بعكس من يصابون بالحمى فذكاؤه حاضر في كل وقت وفى كل موضوع الا اذا اردت ان اخطيء فكره واكذب مارأي فقد استولت عليه الاوهام والخيالات واثرت عليه تأثيرا شديدا ويظهر ويالأسف انه شب على الوهم والتفاؤل ومن كانت هذه حاله لايجدى الحديث معه فى الامور الروحية نفعا فللوهم والخيال سلطان قوى عليه ومن اراد ان يحاور مثله ويستند فى اقواله على البراهين العلمية فهو انما يستند على عصى مكسرة

ـ أهو يصغى لك فى المحاورات بهدوء ام يشوش عليك ؟

ـ لديه طريق واحدة للجواب وهي بكل اسف اصعب مايمكن

التصرف فيه وذلك انى كلما اردت ان اقنعه انه واهم يسألني ان اعبر له تعبيرا معقولا عما حصل في حفلة الرقص وانت تعلم انه وان كنت وايالك نعتقد انه كان موضع تؤامرة فظيعة الا اننا لم نتمكن من ادراك حقيقة هذه الاسرار غير اننا نقول بالعقل انه اخطأ في فهم مسألته ونحن لم نخطئ ومع ذلك فان لم نقنعه ببرهان قوى معقول وصرنا كلما سألنا ان نعبر له تعبيرا معقولا لا نجيب كان ذلك سببا لتأكيد وهمه وزيادته ثباتا في مخيلته فى كل مرة نعارضه فيها

فاجاب دى اربينو بعد ان صمت برهة

ـ اراننا جاهلين بخفايا هذه الاسرار وسنبقى كذلك فقد جعلت مكافأة مائتي جنيه لمن يكشف لى عن الحقيقة وقد حققت بنفسي مع جميع خدم السراي ومع حارس الكابو سانتو واطلعت على دفاتر البوليس والفنادق ومساكن الايجار لأقف على خيال للحقيقة ولكن جميع مساعيّ ضاعت هباء منثورا واقول ويالأسف انه لو كان شفاء صديقي متوقفا على اثبات الحقيقة ورفع شكوكه واوهامه فقد عز دواؤه واصبح املنا في الحصول عليه ضعيفا جدا فهانا كدت ان اعيى واقطع كل عشم بعد الذى قمت به

ـ اتعشم الا تكون كل آمالنا قد خابت فربما جاءتنا البراهين التي نريدها من حيث لا نعلم

ثم قبض على نبض فابيو وقال بحكمة

ـ وها هو امامك راقد لايحتاج لسوى حقيقة يعقلها فتصلح عقله ونحن واقفان امامه عاجزان عن رفع ذلك الحمل الثقيل عن مخيلته ومازلت

اكرر قولي انه لا ينقذه من مخالب اوهامه الفظيعة الا برهان قاطع قوي يظهر له خطأه فهو الآن كرجل سجن من ساعة ولادته في قاعة مظلمة ولم ير في حياته نور النهار فان لم نفتح له الشرائح ونريه وجه السماء لا يمكننا ان نهديه الى الصواب ابدا.

قال الطبيب ذلك ثم سار نحو الباب قاصدا الخروج فرأي نانينا واقفة بقربه بعد ان قامت من مكانها فوقف ونظر اليها برهة وهز رأسه بلطف وحنان ودعا مارتا وكانت بالحجرة المجاورة وقال

ـ اذكر يا سنيورا مارتا انك قلت لي ان مساعدتك الصغيرة الجميلة تسكن دارك فهل هي تتمرض كثيرا؟

ـ كلا يا حضرة الطبيب فهي لا تمشي الا قليلا جدا حيث تذهب الى اختها بعد ان تترك السراي ثم تبقى هنالك حتى تعود.

ـ لقد تراءى لي ذلك لاصفرار لونها وثقل جفنيها

ثم وجه حديثه لنانينا

ـ انت يا عزيزتي فتاة طيبة جدا واظنك تصغين الى ما اقول وتعملين به فلتذهبي كل يوم قبل حضورك هنا الى الخلاء وتمشي مسافة طويلة جدا في الهواء النقي لانه من العبث ان تقيمي طول النهار في حجرة ضيقة مغلقة وانت في ريعان الشباب واعلمي انك ان لم تفعلي ما آمرك به تقعين مريضة في يدي، ولا يمكنك ان تتمي مأموريتك التي عهدت اليك نحو مريضنا.

ثم اشار للسنيور اندريا انه مستعد لمرافقته وقال قبل خروجه لا تنسي يا بنية ان تمشي كل يوم خارج المدينة مسافة طويلة والا

وقعت في يد الامراض واعلمي ان كلامي حق لاشك فيه

فوعدت الفتاة العمل بنصيحة الطبيب الا انها كانت تتكلم وعقلها شارد وظهر انها لم تع تماما لشدته وحنوه والحقيقة انها كانت تفكر فيما سمعته بجانب فراش فابيو فقد وعت جميع المحادثة بين الطبيب ودى اريتو ولم تفقد منها حرفا واحدا فقالت في نفسها اثناء عودتها نحو الفراش بعد ان خلت الحجره - ياحبذا لو امكن الحصول على ذلك البرهان الذى يشفيه !

ولما عادت الى دارها في المساء وجدت به خطابا فضته واذا به من المعلم لوكا لومي يخبرها فيه بكل اختصار انه عاد الى بيسا وانه متشوق لان يراها لتجلس له نموذجا لتمثال جديد طلبه احد اغنياء نابولى

فجعلت تسائل نفسها عما اذا كانت ترد عليه كتابه باشد لهجة او تذهب بنفسها وتخبره بلطف انه يستحيل عليها ان تجلس له على الاقل لمدة طويلة فوجدت الكتابة بالتوضيح تستغرق منها زمنا طويلا اما الذهاب واخباره بلسانها لا يستغرق الا بضع دقائق وعلى ذلك تبرقعت وخرجت قاصدة دار الصناعة ولما وصلت الباب ودقت الجرس طرأ عليها فكر فجائي عجبت كيف لم تفكر فيه من قبل وهو ايمكن ان يكون الاب ركو مع اخيه ! ولكنها لم تجد لديها فرصة للرجوع فعزمت على الاستفهام قبل الدخول ولم تلبث ان فتح لها احد العملة فسألته بتحير وتشوق عن الراهب فاجاب انه متغيب عن المكان فصممت بكل حرية لتعتذر للمعلم لوكا ولم تجد ضرورة لان تخبره اكثر من انها تشتغل كل يوم بتمريض مريض وليس لديها وقت كاف للجلوس له فلم يقتنع بكلامها وقال ان الوقت كاف اذا شئت وجعل كلما تزداد اباء وامتناعا يزداد الحاحا ورجاء وكان اثناء دخول له

ينفض التراب عن التمثيل بعد هجرها وكان ينتقل من تمثال الى آخر وهي تتبعه ببطء هو يرجو ويلح وهي تأبى وتمتنع ثم سار نحو باب الحجرة وهي وراءه تعتذر كلما الخ

ولما انتهى الى آخر الحجرة كان على وشك ان يرجوها ثانيا بيد انه نظر صامتا الى تمثال ابنته الفقيدة الذي حفظه اثرا لذكراها ولم يرض ان يفارقه ولو انه يجلب على فؤاده بعض الهم والكآبة وكان قد نظفه أولا ولكنه لشدة اعتنائه به أراد ان ينظفه ثانيا فصعد على مقعد ليمسح شيئا من التراب ملتصقا على الجبهة فانتهزت الفتاة هذه الفرصة لترك المكان والهرب من الحاحه وبينما هي تحاول ان تحييه وتخرج اذ اوقفها صوته فقد صاح ناظرا بدقة الى جزء من الشعر مسترسل على جبهة التمثال

ـ لصقة وسداولة ـ ماهذا ؟

ثم تناول مدية وأزال قطعة صغيرة من مادة بيضاء ملتصقة عند منبت الشعر وقال مندهشاً

ـ لابد ان انسانا أخذ قالبا من وجه تمثالي والا من وضع هذه المادة الغروية هنا

ثم قفز من على المقعد ونظر حول التمثال باستغراب وقال

ـ لابد ان انف على الحقيقة فقد وكلت تمثالي للاب روكو وهو المسؤول عنها فلا بد ان اسأله في الحال عما اذا كان قد سرق أحد قالبا عن واحد منها . فلما رأت الفتاة انه غير ملتفت اليها دنت من الباب ففتحته وقالت تقريبا للمرة العشرين انها غير قادرة على الجلوس له فقال وهو في حال الغضب

ـ واني لآسف أيضاً ايتها الفتاة

ثم بحث عن قبعته وتركته نانينا وخرجت فسمعته يقول لاحد عماله اذا سأل عني أحد أخبره اني ذهبت الى مسكن الاب وركو

الفصل السادس

(يظن الاثيم اذا ما اختفى تخفي فيوجده الواجد)

(وينطق اعضاءه بالشها دة ان غاب عن جرمه الشاهد)

استيقظت نانينا في الصباح التالى ثقيلة الرأس منقبضة الصدر آلمها صداع شديد استولى عليها فذكرها بنصيحة الطبيب فعزمت على استنشاق النسيم والمشي خارج المدينة لتصلح ما أفسدته يد التفكير والتعب وكان الوقت اذ ذاك قبل ميعاد ذهابها الى السراى بساعتين وكان أود ما على أختها ان تذهب معها لولا از لديها كمية كبيرة من الحصر آثرت البقاء لاتمامها على الخروج فى ذلك اليوم . . فخرجت نانينا يصحبها كلبها اسكارا موكسيا

تبعت الفتاة اقرب طريق خارج المدينة وسار الكلب بجانبها يلحس يدها وهي مشتغلة الافكار لاينبهها نباحه الشديد من برهة الى اخرى فقد اخذت تفكر فيما سمعته من الطبيب وهو واقف بجانب فراش فابيو وذكرت ماأصاب حبيبها ليلة الحفلة فالهاها ذلك عن الكلب ومنعها من التمتع برؤية صفاء السماء ولونها البهي الا انها شعرت بانتعاش وسرور لاستنشاقها نسيم الصباح العليل

وبعد ان سارت نحو الساعة شمرت بتعب فوقفت تبحث حولها عن مكان به ظل تستريح به

ولم يكن امامها وخلفها سوى الخلاء والطريق الذى جاءت منه واما عن شمالها فقام بناء من الخشب نصفه فندق والآخر قهوة وراءه جنينة جميلة بها جملة من النجارين يشتغلون بوضع مرسح للالعاب الناربة

وكان ذلك المكان مخصصا لترويض اغنياء بيسا فى المساء حيث يأتون اليه افواجا للطرب والسرور والتمتع بالجو الصافى بعد انقلاب النهار ولما لم تجد الفتاة بالمكان احدا دخلت للاستراحة بارطب بقعة تصادفها نحو ربع ساعة قبل عودتها

فمرت بقاعة خشبية تستعمل أيام الصيف ثم نظرت بجانبها فلم تر الكلب فبحثت عنه فوجدته واقفا خلف تلك القاعة متجها بأذنيه وانفه نحو الارض كأنه اشتم ما ألفته فظنت انه يتجهز للوثوب على قط القته المقادير في يده فقربت منه لتحقق الخبر وكان النجارون المشتغلون باقامة المرسح يدقون ويكسرون فمنعتها اصواتهم من سماع هرير الكلب ولم تشعر به الا بعد ان وضعت يدها على ظهره

فاندهشت ونظرت مكان وقف من شق بين الواح قاعة الصيف فارتاعت لرؤية شخصين جالسين احدهما سيدة والآخر رجل وكان الشق الذى نظرت منه قريبا من الارض فلم تتمكن من رؤية وجوههما الا انها لاحظت ان السيدة مرتدية بلباس نظرته قبل هذه المرة فى دار جريفوني ودخلها بعض الشك في معرفة لابسته وبينما هى تتطلع اذ رأت خرقا عاليا يقرب في ارتفاعه من عينيها فنظرت منه فتحقق ظنها ولم تر بريجيدا فقط

بل والاب روكو ايضا . وكان النجارون قد ابطلوا الخبط والدق واشتغلوا بالنشر فهدأت اصواتهم وتمكنت من سماع محادثة الشخصين وسمعت بريجيدا تذكر اسم الكونت فابيو فانحنت نحو الكلب وقبضت على فكيه خوفا من نباحه لئلا ينتبه المتحادثان . . ولقد دبت الغيرة في صدرها وتشوقت لمعرفة سرهما وقالت في نفسها . ما دخل بريجيدا مع فابيو وهي لم تر سرايه قط وبأى حق او لأى سبب تذكره ؟ ثم سمعتها تقول بأبرد واصعب لهجة

ـ اسمعت ماقلت ؟ فاجاب الراهب

ـ كلا لم اسمع الا قليلا

ـ فلا عده اذاً فقل لى لم قمت عن عمل اى نظرية اخرى على هام الكونت فابيو ؟

ـ لاني وجدت اولا ان نتيجة النظرية التي اجريتها جاءت بما لم اؤمله ولم يخب شيء من تأثيرها

ـ حسنا ولكن ليس هذا كل السبب !

ـ ثانيا لو قمت بتأثير آخر على عقله لكنت سببا في قتله ولكنني لا اود الا ان امنعه عن الزواج بلا ارتكاب جريمة

ـ هذا هو السبب الثاني ولكن مازلت اعتقد ان هناك سببا آخر دلني عليه اضرابك عن العمل فجأة وارسالك لى امس على غير انتظار تطلب الى ان احضر في هذا المكان المنفرد ومعى القالب الشمع وانت تعلم اني امرأة ولا بد ان تزيل دهشتى بأطلاعي على اسرار هذه المسألة ولا اخالك تتردد في الثقة بى مرة اخرى بعد ان جربتني واتممتنى على اسرارك قبل الآن!

نعم انى مازلت اثق بك ولكن السر فى هذه المرة اقل اهمية فانت تعلمين ان الوجه الشمعى الذى لبسته ليلة الحفلة اخذ عن وجه تمثال اخي بواسطة لصقه بمادة غروبه .

ـ نعم اعرف ذلك ثم ماذا؟

ـ لقد عاد اخى الى بيسا ورأى قطعة من تلك المادة على جبهة التمثال فسألنى بصفتى الموكل على داره مدة سفره ان اوضح له السبب فى ذلك فاجبته بجواب لم يقنعه وطلب الى زيادة الايضاح ولما لم يعد لهذا الوجه من نفع فأريد ان اكسره واراه بعينى يحرق فى النار احتراسا مما عساه يكون وهاانت عرفت كل شىء ولكني اذكرك انك لم تجاوبى على اول سؤال سألتك اياه فهل احضرت الوجه معك ام تركته بالدار ؟

ـ لم احضره

ـ ولم ؟

عندما سمعت نانينا هذا السؤال شعرت باهتزاز الكلب ومحاولته التملص منها وكانت اثناء المحادثه ملتهية عنه بسماعها بألم واسف شديدين ثم علمت انها ان لم توجد للكلب حيلة اخرى تلهيه بها عن النباح لا بد ان يخلص فاه منها وينبح فيكشف سرها ولقد خافت ان يضيع منها شيء من المحادثة فعملت حيلة جديدة وهي ان عانقت الكلب وقبلته فى وجنته الخشنة ففرح بذلك ونجحت حيلتها لانه لم يصادف منها حنانا من بضع سنين اكثر من ملاطفته بيدها او إعطائه قطعة من السكر فجعل يبدى سروره بمحاولته لحس وجهها فرأت ان تمنعه كلما اراد وتصرف معه فى ذلك بضع دقائق لا ينبح في اثنائها فتمكن من استراق السمع بلا مانع

ولم تتمكن من سماع جواب بريجيدا على سؤال الراهب الا انها سمعتها تقول

ـ انا هنا بعدنا ولا اعلم ان كنت قد جئت مساعدا ام لا ولكنني احترست وحذرت من انالتك فرصة تأخذ فيها الوجه قبل ان اشترط عليك شروطي

ـ انك لم تذكري شروطا قبل الآن

ـ حقيقة انني طلبت ان اذهب الى الحفلة في شكل عدوتي الميتة بلا اجر سوي انى ازعج الرجل الذى اهانني اهانة وحشية فيما مضى اما الان وقد اطالت نتيجة هذه المهمة اقامتي بهذه المدينة اكثر مما اردت فقد احتجت للمال واود ان أكافأ على عملي وبعبارة ارضح اتشترى مني الوجه الشمعي بمائتي جنيه؟

ـ اني لا املك من حطام الدنيا عشرين جنيها تحت تصرفي الحر

ـ يلزمك اذا شئت الحصول على الوجه ان تستحضر المائتي جنيه واني لااهددك ولكني اقول انه لابد لي من المال وقد عينت مائتي جنيه لانه المبلغ الذى خصصه صديق فابيو لاظهار المرأة التي لبست النقاب الاصفر ليلة الحفلة فأن انا ذهبت الآن ومعي الوجه لاضرر على بل استفيد اكتساب النقود اما اذا شددوا على في معرفة صانعه ومقترح هذا الفعل الفظيع فسيعود الامر عليك بالضرر العظيم

ـ ما خبثك اتظنين انى اهتز الكلمات تخرج من فيك ؟

ـ تنبه ايها الاب فقد عاملتني من سابقة عرفتك معاملة حسنة وسأتركك الان حتي تعود لصوابك وأخلاقك الجميلة فان شئت ان

تعتذر عن سبي بلفظ الخبث وتضمن لنفسك نوال الوجه الشهي فلتحضر الى اليوم عند الساعة الرابعة مساء وممك مائتا جنيه وان تأخرت عن هذا الميعاد فقد قضى الامر ..

اعتب ذلك سكون شامل فسمعت نانينا خرخشة ملابس بريجيدا فعلمت انها تركت المكان وسمعها الكلب أيضا فاهتز في يدي سيدته ونبح فازعج الراهب فرأته وقد ذهب من مكانه وخرج من القاعة وكان لديها وقت كاف يمكنها من الاختفاء خلف احدى الاشجار ولكنها لم تتمالك نفسها فجمدت في مكانها ولم تمض برهة حتى رأته يتقدم نحوها ولم يلبث ان صارا امام بعضهما وجها لوجه

فوقف على مقربة منها ناظرا اليها نظرة الغضب غير ناطق اما هي فجعلت تتلصق بحائط القاعة وقد قبضت باحدى يديها على زمام الكلب وكان ذلك من حسن حظ الراهب فقد كشر الوحش عن انيابه وتغير نباحه وهريره من الحال العادية الى الوحشية ولو انها أشارت اليه لقطع في لحظة واحدة جميع رهبان بيسا لا الاب روكو وحده .. ثم قال الرجل بثبات

ـ أرى في وجهك انك كنت مصغية الينا ولا بد ان تكوني قد سمعت كل شيء

فلم تجبه ولم تحول عينيها عن وجهه فقد نظر اليها بسكون وهدو غريبين وظهر في عينيه قنوط ويأس ازعجاها فتمنت لو أمكنها الثبات على قدميها والهرب من امامه فقال بعد ان صمت برهة يفكر ولقد كانت نغمة حديثه غريبة محزنة

ـ لقد شككت مرة فى صدقك ولاحظتك سرا وهاأنت عملت معى الآن ماعملته معك من قبل . ولقد وضعت مرة امل حياتك في يدى وها أنت وقفت الي اكتشاف سرى وتهديم آمالي لان يدى لم تكونا تستحقان ما وضعته فيهما فكنت انت الآلة التي اعدت لعقابي وهل هذا قصاص الآله وتوفيقه ام هو عدل الفرص العمياء ؟

ثم نظر الى السماء متأسفا متأوها فلم تحول الفتاة نظرها عنه فقوم رأسه ثانيا كانه شعر بتأثير نظراتها وقال

ـ ماالذى يسكتك ومما تخافين ؟ . انى يابنية لايمكنني ان انالك بسوء وهذا الكلب بجانبك والحبال بقربنا وانى لاريد ان اسيئك فلتعودى الى بيتا وتخبرى بكل ماسمعته واعيدى حبيبك الي صوابه وصبى على انواع المصائب والعذاب فهذا واجب عليك تأديته واني لم اعاديك من قبل ولم اعاديك الآن فلم تكن الغلطة التي ادت بك الى اسوأ الاحوال غلطتك كما ان الغلطة التي عاقتنى عن السعي فى اعادة حقوق الكنيسة لم تكن غلطتي فتنبهي ايتها الفتاة وعودي فى طريقك حالما اعود في طريقى ولتتجهزى لمستقبلك . . وان لم نتقابل بعد فتذكرى انى فارقتك ولم اسيء اليك بكلمة خشنة ولم انظر اليك نظرة مؤلمة . . نعم افارقك على هذه الحال وانا عالم ان اول كلمة تفوهين بها فى بيتا تذهب بكل ذرة فى وتهدم صروح اعمالي وآمالى . .

قال هذه الكلمات بصوته العادى ثم نظر اليها بالتفات وتهدد وسار وقبل ان يختفى بين الاشجار قال ـ استودعك الله . ولقد اثرت عليها تلك الحال وجلست بجانب القاعة مدة تفكر فيما كان وهل هي التي اساءته

ام هو الذى اسامها وبالجملة فقد اخافتها كلماته وكان لوقعها تأثير فى قلبها الطاهر . . واخيرا قامت وتركت الجنينة وسارت فى الطريق العمومى فغير منظر السماء وصحو الشمس ورؤية المدينة عن بعد مجرى افكارها وجعلت تفكر في فابيو والمستقبل . . ثم ذكت في قلبها نار الشوق الى الوصول ليبسا في الحال فاسرعت السير على غاية جهدها

ولما وصلت السراى علمت ان الطبيب موجود عند المريض فدخلت عليه فى حال سرور فلما رآها تبين له حدوث شىء غير عادى فقادها خارج الحجرة وذهب بها الى مكتب فابيو وهناك اخبرته بجميع ماجرى فقال بانشراح ـ لقد نجيته ياعزيزتي فعلى الآن ان يعود الى صوابه ومتى حضرت هذه المرأة الى هنا لنال المكافأة سأكافئها بما تستحق اما انت فلا تتركي السراي الا اذا امرتك وهاانا ذاهب لأرسل للسنيور اندريا دى اربينو ليحضر ويسمع هذا النبأ الغريب ولتدخلى وتقرأى لفابيو كعادتك وحاذرى ان تطلعيه على شىء مما قلته لي فلا بد ان تتبع معه الامور بالحكمة ويلزم ان نتركه فى غياهبه حتى نحصل على جميع الاستعلامات والبراهين اللازمة

لى دى اربينو دعوة الطبيب فى الحال فقصت عليه نانينا قصتها ثم عادت الى عملها وبقيا يتشاوران فى الامر وقبل الساعة الرابعة بقليل دعواها الى المكتب وقد جلس الطبيب وامامه كيس ملآن بالنقود وذهب دي اربينو لتنبيه على الخدم انه متى جاءت سيدة بخصوص الوثيقة المنشور عنها يدخلونها الى المكتب بلا توان

ولما جاءت الساعة الرابعة امر الطبيب الفتاة ان تجلس على حائط

احدى النوافذ حتى يدعوها فجلست وارخي عليها الستار ليحجبها عن اعين الناظرين

وبعد نحو ربع ساعة فتح الباب عن آخره ودخلت بريجيدا بنفسها فانحني لها الطبيب وقدم لها دى اربينو كرسيا فشكرتهما بكل ثبات ولم يظهر عليها ادني خوف ولا تردد ثم قالت

ـ اعتقد انى اخاطب اعز اصدقاء الكونت فابيو فهل تقومان نيابة عنه بأداء قيمة هذه الوثيقه

فنظر الطبيب الوثيقة وقال

ـ ان اعتقاد السيدة في موضعه . ثم اشار الى كيس النقود فاتمت حديثها متبسمه

ـ اذا فانتما مستعدان لسداد مبلغ مائتى جنيه لمن يدلكما عن المرأة التي لبست النقاب الاصفر ليلة حفلة المرقص ويخبركما كيف حصلت على تقليد وجه المرحومة الكونتسه اسكولي ؟

فقال دى اربينو وقد مزجت لهجته بشيء من الغضب

ـ بلا شك نحن مستعدان فنحن شرفاء لا نقول قولا عن مجرد ارادة وارتياح ونشيعه بين العامة والخاصة على شروط معينة ثم ننكث به . .

فقال الطبيب

ـ عفوا ياصديقى فانك تخاطب السيدة بلهجة الغضب فى حال انه يلزمها الاستفهام عن كل ما تريد

ثم وجه حديثه لبريجيدا وهو يخبط بيده على الكيس

ـ هاهي المائتا جنيه ايتها السيدة ونحن مستعدان لدفعها لمن يجيبنا على

ما نسأل ولكن (هنا اخذ الكيس من على الطاولة ووضعه على فخذه) نود ان يبرهن من يريد نوال هذه الجائزه على انه يستحقها براهين واضحه ،

فتبع نظرها النقود بشره وقالت وقد اخرجت من تحت ملابسها صندوقا صغيرا ودفعته الى الطبيب

ـ براهين ؟ هاكم برهان واحد يؤيد اقوالي ويمنع كل شك ففتح الطبيب الصندوق ونظر الى الوجه الشمعي ثم تناوله لدى اربينو ووضع كيس النقود على الطاولة ثانيا ثم قال وهو يقربه من بريجيدا واضعا يده واياها فوقه

ـ ما في هذا الصندق يعبر عن ذلك العمل العظيم واظن ان المرأة التي لبست الملابس الصفراء كانت في طول الكونتيسه الفقيدة فقالت بريجيدا

ـ بالضبط وعيناها كعينيها ولون ملابسها كلون فراش حجرتها وقد لبست ذلك الوجه وهو وجه الفقيدة في حال موتها نظلوه من لون وجوه الاحياء وهذا كله يثبت الحقيقة ولم يبق خافيا عنكما الا معرفة من هي المرأة فلتدني ياسيدي هذا الكيس مني قيراطا او اثنين وانا اكشف لكما عن سرها واخبر كما من هي . فقال الطبيب وقد تغير خلقه كلية

ـ نشكرك ايتها السيدة فقد عرفناها قبل الآن

وفي اثناء كلامه سحب الكيس نحوه فاحمر وجه المرأة وهبت واقفة على قدميها وقالت وقد غلى دمها

ـ اتريد يامولاي ان تعرفني انكما رأيتماني امامكما امرأة لاحول لي ولا قوة فأردتما ان تغشاني وتحرماني الجائزة ؟

ـ لم ياسيدتي ؟ انا قد اشترطنا ان ندفع الجائزة لمن يحيطنا علما بكل ما نريد

ـ حسنا يا مولاي وها انا اعلمتكما ببعض الشيء وسأعلمكما بالباقي

ـ حقيقة ولكن بكل اسف قد كان سماك لسان آخر اخبرنا عن الحقيقة تفصيليا واعلمنا من هي المرأة التي لبست النقاب الاصفر وكيف حصلت على هذا الوجه ومن هو الذي صنعه واشار بهذه الحيلة ولقد جاءنا هذا الشخص قبلك بنحو الثمان ساعات واثبت لنا اقواله بالبراهين القاطعة فهو اذا يستحق الجائزة .. وهذا الكيس لك يا نانينا فاقدمي وخذيه فخرجت نانينا من وراء الستار فلما رأتها بريجيدا ارتجفت عليها ونظرت اليها برهة صامتة ثم قالت مندهشة «الفتاة» وبدهشا صمتت ثانيا وقد خانها صوتها فقال الطبيب

لقد كانت الفتاة اليوم وراء قاعة العيف بينما كنت وشريكك تتحاوران لاحظ دي اربينو وجه بريجيدا من وقت ظهور نانينا امامها ثم دنا منها وكان ذلك من حسن حظ الفتاة لانه لم تكد تخرج كلمات الطبيب من فيه حتى تناولت المرأة مسطرة قوية من على المكتب وكانت على وشك قذفها بقوة على رأس غريمتها لولا ان مسك السنيور ذراعها

فقالت وقد القت المسطرة ونظرت الي دي اربينو وعلى شفتيها المبيضتين تبسم طفيف وفي عينيها نيات الخبث والحسد

ـ يمكنك ان تترك ذراعي ياسيدي ولا تنتظر فرصة امكن ... قالت هذه الكلمات ثم انصرفت نحو الباب وقبل ان تخرج التفتت وراءها ونظرت الى نانينا نظرة البغضاء وقالت ـ ليتني اسرعت بالمسطرة . ثم خرجت فقال الطبيب

ـ الم اقل اني سأكافئها بما تستحق .. ولكني اشكرها على شيء واحد وهو انها كفتنا مؤونة الذهاب الى دارها واجبارها على اظهار الوجه

ثم وجه حديثه لنانينا فقال

ـ والآن لتذهبي يابنية الي دارك يصحبك احد رجال الخدم حتى يوصلك بابك سالمة فربما لاتزال هذه الشريرة متجولة حول السراى .

ففي فقد تركت الكيس . فقالت ـ لا اقدر ان آخذه ياسولاي . قال

ـ ولم لاتأخذينه ؟ . قالت ـ المال لمثلها !

لفظت الفتاة بهذه العبارة فاحمر وجهها ونظرت نحو الباب فنظر الطبيب الى صاحبه نظرة خفية وقال

ـ لابأس فلتذهبي ولالزوم للألحاح بخصوص المال لانى سأخذ المال مع الوجه ولتحضري غدا صباحا كعادتك وفي هذا المقام سأعبر طريق اخبار الكونت فابيو بالحقيقة انما يلزم الحذر والتأني وانا اضمن النجاح

الفصل السابع

اذا مابدت ذنوب امرئ لعين الانام وليس مفر
فماذا عليه سوى ان يقر بما قد جناه وان يعتذر

باكر المعلم لوكا لومي في الصباح التالي بزيارة سراى دي اسكولي وقد ظهرت عليه كما رأى الخادم علامات التحير والكآبة وقال انه يود مقابلة الكونت فابيو فأجيب بعدم امكان ذلك فعزم على العودة ولكنه سأل عما اذا كان الطبيب موجودا ويمكنه مقابلته فأجيب الي ذلك ولم تمض برهة حتي صار في حضرة الطبيب فقال ناظرا حوله بتحير وتردد

ـ لا اعرف كيف ابدأ حديثي واخبر بما اريد ولكن اتسمح لى ان

اسألك اولا عما اذا كانت الفتاة نانيتا قد حضرت هنا امس ؟

ـ نعم حضرت

ـ احادثت احدا فى امور سرية ؟

ـ نعم حادثتنى ـ اذا فانت تعرف كل شئ

ـ كل شئ . ـ اني ليسرني ان اسمع منك ان شفاء الكونت صار قاب قوسين واني لآسف ان اقول ان اخي . . .

ثم وقف عن الكلام متحيرا واخرج من جيبه ملفا من الورق فقال الطبيب

ـ يمكنك ان تتكلم عن اخيك باوضح عبارة فاني اعرف نصيبه فى هذا العمل الفظيع .

فقال لوكا بلهجته القديمة بصوت هادىء متبسما تبسم الأسف

ـ اني لاسترحمك وارجوك ان تنوب عنى في استرحام ورجاء الكونت الا يذاع بين الناس ما علمته من اعمال اخى فان هذا يسقطنى ويمنع عنى ابواب الرزق الذى لا احصل الا على الضرورى منه .

ـ بالله عليك أأرسلك أخوك بهذا الاسترحام ؟

ـ كلا فانما اتكلم عن نفسي لان اخي قد سطر جميع ما حدث منه من اوله لآخره وارسله لرئيسه وهو الآن ينتظر الحكم . هما كان ولقد اخذت نسخة من تقريره لابرهن انه مخلص سليم النية لا يبالى بالاخطار التي تحوط به وقد كان فى امكانه ان يتخلص منها اذا هرب فليس للقانون سيطرة عليه والامر للكنيسة وها هو قد اعترف لها واظن انه اذا شاع امره بين العامة لا يستفيد الكونت شيئا سوى ضرري ضررا

عظيما فتأخذ هذه الاوراق وتطلع عليها بنفسك وتطلعه عليها في الوقت المناسب واني لاثق بشفقتكما وحنانكما . .

ثم وضع الملف على الطاولة منشورا وعاد نحو النافذة فنظر الطبيب الى الاوراق منذهشا

بدأ الراهب تقريره او اعترافه بان قال ان اغلب ارث الكونت فابيو حق للكنيسة انتهبه منها اجداده وجاء على ذلك ببراهين مرتبة استخرجها من اوراق قديمة ولا بد ان يكون قد تحمل في ذلك مشاق كبيرة .

ثم ذكر مطولا الاسباب التي دفعته للاهتمام بالوارث عائدا الى الكنيسة بصفته ابنها وخادمها الامين وقال انه عمل كل حيلة - ما عدا التي تحملها ذنبا عظيما - لاعادة حقوق الكنيسة اليها ولم يرض ان ينتظر الى وقت غير هذا كي لا تضيع منه الفرص

وعرف في ثالث بند كيف سعى في زواج مدالينا من فابيو ليرجع حقوق الكنيسة بتسلطه على بنت اخيه وكيف انها ماتت وعلق آماله بطفلها وشرح اخيرا خوفه من زواج فابيو مرة اخرى وتفكيره في عمل الحيلة لمنعه وقد كتب ذلك الفصل بدقة ومهارة زائدتين

وفي البند الرابع شرح مسألة تفكيره في حيلة الثعلب الاصفر وقال انها طرأت عليه فجأة بينما كان يفكر في اوهام الفتى ولكنه رآها فظيعة في اول الامر فاضرب عنها وامتنع عن الذهاب الى دار الصناعة مدة تغيب اخيه عن بيسا الا انه لما علم بعودة فابيو وسمع باشاعة ذهابه الى حفلة المرقص خاف عواقب الامر وفكر في انه لا بد ان يتزوج ثانيا فعمل على اتباع الحيلة واخذ الثعلب الشمع عن وجه تمثال منيرفا واظهر في البند الخامس

كيف صنع وكيف تقابل مرتين مع امرأة اسمها بريجيدا عرفها من قبل فطلبت اليه ان يسمح لها بالقيام بمهمة تقليد الكونتيسه الفقيدة لحسد علته قديما وابان كيف اقترحت عليه تسطير خطابات مزعجة للفتي تمهيدا لادخال الوهم عليه وقال انه انتفض لذلك اولا وارتجف لذكراه الا ان لمرأة لم تلبث ان اخبرته ان فتاة اسمها انا نينا تنهمك في خدمة المدعو بين ليلة الحفلة وهذه الفتاة كان فابيو يحبها حبا جما وكان قد عزم على الاقتران بها لولا ان حال بينهما وفرقهما. لذلك وافق بريجيدا على عمل الحيلة والقيام بتلك المهمة الفظيعة

وشرح في البند السادس ما حصل ليلة المرقص وقال انه ذهب الى فابيو في الليلة التي قبلها بعد ان ارسل اليه ليصطحبا بعد ان حل بينهما سوء فهم اوجب وحشتهما ثم اعترف انه اقترض مفتاح بوابة الكامبوسانتو مكان دفنت بنت اخيه واخفي عن خفيرها سر المسألة وكان قصده ان تذهب بريجيدا من ذلك المكان وتعود اليه خوفا من ان يتبعها احد وبذلك تتم الحيلة ويثبت الوهم الذي يتوقف عليه عمله الفظيع

وقال في البند السابع ان كل همه من هذه الاعمال لم يكن الا ليمنع فابيو من الزواج مدة اخرى لانه ان فعل تذهب ثروته من يد الطفلة التي له نفوذ عليها الى امرأة واولاد لا دخل له في امورهم وبذلك يهضم حق الكنيسة ويذهب سعيه هباء منثورا

وشرح في الفصل الاخير ما حصل بعد ذلك وقال انه مستعد لتلقي اي عقاب يقرره رؤساؤه مهما كان صارما وانه يقابله بجأش ثابت وقلب لا يتزعزع

قرأ الطبيب ذلك التقرير ثم نظر الى لوكا وقال :

— اني اوافقك ان اشاعة امر اخيك بين العامة لا تجدي نفعا فهو

قد فوض الامر لرؤسائه ومنتظر عقابهم كيفما كان وهم بالطبع سيقومون بالواجب عليهم . . وسأطلع الكونت فابيو على هذه الاوراق في الوقت المناسب ولا شك انه سيري رأيي فيها

خففت هذه الالفاظ همومه او كادت تخفي وانصرف فوضع الطبيب الاوراق في الدرج الذي وضع به الوجه الشمعي وقبل ان يقفله أخرج منه الصندوق وفتحه ونظر الى الوجه برهة ثم ارسل في طلب نابينا فلما دخلت عليه قال

— سأبدأ الآن يابنية اول نظرية مع الكونت واري انه من المهم جدا ان تكوني معنا . . .

ثم اخذ الصندوق والوجه داخله واشار الي الفتاة ان تتبعه وقصد احجرة فابيو

الفصل الثامن

(تبدل عسري يسرا وقد بلغت من الدهر كل المنى)
(فيارب هبني قبولا به اعش - عيدا حليف الغنى)

بعد مضي ستة اشهر على تلك الحوادث صادف ان السنيور اندريا دي اريينو وصديقه الفارس فينيلو كانا يقضيان بعض ايام عند صديق لهما على شاطىء خليج نابولي وقد خصص لهما قارب صغير يقطعان فيه غالب الاوقات متجولين فوق سطح الماء وكثيرا ما كانا يزوران جزر الخليج المحبوبة

وبينما هما ذات مساء في تجولهما وقد جعلهما جمال منظر الشاطىء يسيران بالقرب منه مرا على كثير من الرؤوس قبل الغروب ثم انتهيا الى جزيرة جميلة المنظر بيضاء الرمل ورأيا فوقها على مسافة غير بعيدة

منزلا جميلا محاطا بأشجار البرتقال والليمون .. ونظر اطريقا جميلا يوصل الي المنزل ثم شاهدا أسرة قليلة الافراد مجتمعة الي بعضها لقضاء ساعات المساء فى سرور وهناء واستنشاق النسيم الصحو العليل

وكان اكبر من فى هذه الاسرة سيد وسيدة جلسا بجانب بعضهما على الرمل تحمل السيدة فى حضنها قيثارا تضرب عليه نغمة رقص بسيطة وبجانبها طفل صغير يلعب على الارض بفرح وسرور وامامهما فتاة ترقص على نغمات القيثار وآخر اعضاء هذا المجتمع الهنى كلب غريب الشكل يرقص على ساقيه الخلفيين يرقص بحال عجيبة جدا وقد غلب صوت القيثار وضحك الفتاة سكون الطبيعة وسمعه من فى البحر بكل دقة ووضوح فقال دى اربينو لصديقه وكان قابضا على الدفة

ـ اقترب من الشاطيء واختف كما افعل فى ظل القلع فانى اريد ان ارى وجوه هؤلاء الاشخاص بدون ان يرونا

فأجاب فينيلو واقترب من الشاطيء تماما فنبحها الكلب فحولا الدفة ثانيا وارادا الابتعاد فصاحت الفتاة الصغيرة :سياحة سعيدة ايها السيدان فرحبا بكما ...

فرفعا قبعتيهما ردا لهذه التحية ثم رأياها وقد جرت الي الكلب وسكتت ساقيه الاماميين وقالت :

ـ العبي يانانينا على قيثارك ... فملا صوت القيثار ووقف الكلب المضحك فجأة على ساقيه الخلفيين فقال دى اربينو

لقد سمعت انه شقى وانه تزوج بها وتغيب معها واختها الصغيرة وطفلته الرضيعه ولكنى لم اعلم ان مكانهما قريب منا هكذا ولولا مقاطعه

سرورهم لرسينا على شاطئهم . فقال صاحبه

ـ انى لم اسمع نهاية مسألة النقاب الاصفر ولكن بلغني ان احد الرهبان كان شريكا في الامر فهل هو كذلك ؟

ـ نعم ولكن لم يعرف احد ما حل به بعد فقد دعي الي روما ولم يسمع عنه شيء وه شروايتان الاولى انه حوكم وعوقب عقابا صارما حقا . الثانية انه أرسل للوعظ بين اناس متوحشين في جومن اردأ الاجواء

ـ وماذا كان من امر المرأة التي لبست النقاب ؟

ـ لقد كانت عاقبتها وخيمة جدا فقد التزمت بيع جميع ما تملكه لتسد ديونها وكان لها بعض صديقات في دار جرينوني اعتمدت على مساعدتهن ولكنهن هجرنها ولم تجد بدا من ترك المدينة وحيدة لا تملك شروي نقير . .

لم يأتيا على هذه النقطة من المحادثة حتى وصلا الرأس التالية فنظرا وراءهما ليزودا نظرهما بآخر نظرة نحو الشاطيء وكانا لا يزالان يسمعان صوت القيثار وهو آت برخامة

وقد امتزجت نغمته بنغمة صوت السيدة وهي تغني اما الفتاة والكلب فجلسا قرب قدميها وزوجها لم يغير مكانه الاول بجانبها

. . . . . * . . . . . .

وبعد برهة أخرى وصل القارب الى شاطيء الرأس الخلفية فتوارى شاطيء الجزيرة عن عينيهما واخذ صوت القيثار يزداد ضعفا كلما ازداد بعدا